# قميص يوسف

| | | |
|---|---|---|
| اسم الكتاب | : | قميص يوسف |
| النوع | : | رواية |
| تأليف | : | محمود مصيلحي |
| الطبعة | : | الأولى |
| إصدار | : | ٢٠٢١ |
| تصميم الغلاف | : | ضياء إبراهيم |
| التدقيق اللغوي والإخراج الفني | : | هند محمود |
| رقم الإيداع | : | 2021/3021 |
| الترقيم الدولي (ISBN) | : | 9789776829800 |

إبهار
للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية، القاهرة

+20 106 026 7401

ebharpuplishing@gmail.com



جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرِّض صاحبه للمساءلة القانونية.

أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

رواية

# قميص يوسف

«يا صديقَ كلِّ زمانٍ احذَرْ عليَّ ومني»

محمود مصيلحي

Qamiso Yousuf

إلى اليوم الذي سأفرُّ فيه من مهرِكِ الذي لا تكفيه

كنوز الدنيا، وأخبرك فيه أن كل حرفٍ كتبته

كان مهراً .. لكِ!

**إيمان محمد**

**(ذات الشال)**

# إهداء

إلى كُل من لا يملك قوت الغد، أو حتى اليوم،

إلى أُمة إذا وجدت كتابي هذا يومًا سيجعلون من أوراقه

قراطيس للطعمية أو لفافةً للحشيش.

# مقدمة

أريدُ فقط أن أقول كلمةً واحدة، هي وربِّ الأقصى أبلغ من روايتي كلها . قبل أن تُمنَع هذه الكلمةُ في بلادي، قبل أن تنسى الأجيال القادمة أن فلسطين كانت ولا تزال عربية .

لا للتطبيع !

# تنويه

جميع الأحداث هنا تدور في كوكب وعالم آخر موازٍ لعالمنا، في مكانٍ آخر لا يغنم بالنعيم والعدل الذي يملأ واقعنا نحن الآن.

فأقرُّ أنا الكاتب أنني لم أكتب عن الظلم إلا لنشعر بالنعمة التي نعيش فيها، وسأظل أكتب عن ذلك الظلم حتى تحترق النجوم، حتى تفنى العوالم، وحتى لا نصبح مثل سوريا والعراق.

# هنا ستجد الوضوح في
# أوج بزوغه مشوشا

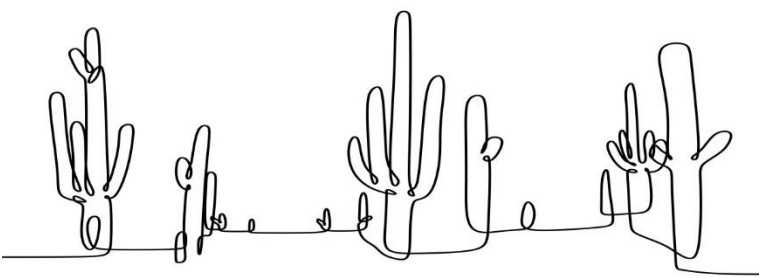



| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ن | | أ | | ب | ٠ | أ | أ |

# صِرْم

تقع صِرْم في الركن الشمالي الشرقي من قارة إفريقيا، ولديها امتداد آسيوي، إذ تقع شبه جزيرة سيناء داخل قارة آسيا، فهي دولة عابرة للقارات، تقع على مدار السرطان وتمر بين خطَّي عرض ٢٢° و٣٦' ٣١° شمالًا، وبين خطي طول ٢٤° و٣٧° شرقي خط جرينتش.

يُقال إنه غُيِّر اسمها إلى هذا الاسم عندما حاول «محمد علي باشا» تحقيق الاكتفاء الذاتي، فكناها العرب ومن بعدهم العثمانيون بـ«صِرْم»، أي المنقطعة، لانقطاعها عن الاستيراد من الخارج. وينفي البعض هذا السبب ويقول إنها سميت «صِرْم» لأنها انتكست بعد ازدهارها وصارت كجماعة منعزلة عن العالم. وأنا أرجح هذا السبب لأن قطار التقدم ركبه العالم، ونحن لم نبلغ العربة الأخيرة منه حتى!

«فكل ما أعرفه، هو أنني لا أعرف شيئًا»

سقراط

## -١-

## لو تعايشت الدينا صورات قديمًا مع التغيُّرات التي حدثت للأرض، لما عشنا نحن !

## ١٣ يونيو ١٩٦٧..

الحُب، نارٌ تصهر القلوب حتى يلين ما صلبه الزمن، ثم تعيد تشكيلها بمشاعر تجعل من قلبِ اثنين قلبًا واحدًا، قلبًا لا يعرف سوى الحب.

«بدري حسين» صاحب اللون القمحي، جندي تخلت عنه الحرب حين أُصيب، قد فتك به الخوف حينما قرر أن يستسلم ويرفع يده ملوحًا بالهزيمة قائلًا: «أنا معكم، أنا معكم فلا تقتلوني، إخوانكم أشقائي في حارة اليهود!»، فما كان منهم إلا أن رموه برصاصة لم تُصِب غير قدمه، وظل في الصحراء حتى أنَجَده أصدقاؤه من جنود الجَيش الصِّرْمي وعادوا به إلى القاهرة، ليدرك أنه سيكمل حياته أعرجَ بقدمٍ واحدة. حينها دلفَ إلى حي الجمالية، اجتمع أهل شارعه مرحبين بالبطل المصاب العائد، وأتى والداه وأخذاه بين راحتيهما، وبكيا حتى تبلل قميصُه، وبركت أمه على الأرض وهي تذرف الدموع وتقبل قدمه التي كان من الواضح للجميع أنها لن تخطو على الأرض ثانيةً. لم يعلم أحد بضَعْفه سوى اللّٰه والأرض التي خانها، حتى مَن أحبَّها، تذكرها وهو في أصعب أوقاته ولم تتذَّكرُه هي.

أحيانًا يُجبِرك الضَّعفُ على تذكر مصدر قوتِك.

❀❀❀

بعد ثلاث ليالٍ قضاها مع أسرته قرر الذهاب إليها، هي ليست بعيدة فهي تسكن بالقرب منه. وصل توًّا إلى منزلها، صعد السُّلم ودق الباب خمس مراتٍ متوازياتٍ مع دقات قلبه. أجابَ أحدهم، فأمسك هو منديله ليمسح قطرات العرق مُعلنًا دخوله ساحةَ التوتر، فوقعت عصاه على الأرض، وحين انحنى ليأتي بها فتح الباب رجلٌ ضخمُ البنية مؤخرته أضخم من رأسه، وقال بنبرة كِبْر غليظة:

- أي جُرْم قد فعلته أنتَ لتعود وتقف أمامي؟!

كان على استحياءٍ من حاله وهو يحاول أن يأتي بعصاه، حتى أحكم قبضته عليها وتماسك، ثم قال:

- خيري الوحيد في الدنيا أنني أحببتُ ابنتك، وجُرمي الوحيد أنها ابنتك أنت.

ازداد عنف الآخر ورَدَّ بغضب:

- إن لم ترحل الآن فسأقتلك!

نظر إليه نظرةً حادةً وأردف:

- سأدين باليهودية، على أن تُزوِّجني ابنتك.

ابتسم الشيطان، كأنما سجد آدم له، أتبعها بقوله:

- هكذا هو زوج ابنتي الحقيقي، بابي مفتوح لك، تفضل!

الشيء الوحيد الذي يلزمك لتغيير معتقداتك، ليس الحرية ولا العلم، ولكن الضَّعف؛ الضعف يجعل من الصنم إلهًا حتى تراه، الضعف يجعل من الإلحاد علمًا يدَّعي أنَّ كل شيءٍ صدفة، دون أن يسأل: «مَن رب الصدفة؟!».

«بدري» تخلى عن الإسلام واعتنق حب «مليكة»، الفاتنة صاحبة العود الفرنسي الأصيل، العينين الواسعتين الخضراوين، الجسد المُرصَّع بالحلاوة من كُل جوانبه والشعر البني المائل إلى الاصفرار، تمتلك دمًا باردًا، تدين باليهودية. وعلى الرغم من هجرة كثير وكثير من اليهود إلى خارج صِرْم، فقد كانت هي من القلائل الذين بقوا في حارة اليهود بحيّ الجمالية في القاهرة الفاطمية. هي التي أحبها منذ خمسة أعوام، أغوَتْه مرةً بجسدها وراودته عن نفسه لتجعله عبدَها المُخلِص، شاركته حُبًّا كان هو المغمور في بحورِه وهي كالتي تشاور من البَرِّ بمنديلها الأحمر.

دخل وكر الشياطين ولم يخرج، حتى إنه تزوجها في شقة أهلها، أما أهله فقد نُكِسَت رؤوسهم أمام الجميع بعد أن هجرهم وخان دينه ووطنه. ماتت أمه بعد زواجه بأقل من شهرين، ولم يعلم بهذا رغم قرب بيته القديم منه. ولم يتحمل والده فراق أمه وفراقه، فمضى إلى ربه بعد عشرة أشهر من موت والدته. سنةٌ واحدةٌ كانت كفيلةً كي تموت أسرته البسيطة دون أن يعرف. صار يمشي قليلًا

ويسكر كثيرًا، يتعاطى المُخدِّرات لينساهم كأنه من نسل الشيطان وُلِد.

نسيان المفقود الذي لم يكُن لينساك إذا فقدك، هو أمر مُحرَّم على القلوب الصادقة، ومُنتهَك عند القلوب السافلة.

البعض ينسى أن الله لا ينسى، ولو طال الزمن.

❀❀❀

**٦ مارس ١٩٧٤..**

بعد سبعة أعوامٍ من النسيان، قررت «مليكة» أن تصبح «زينب». لم تصبح مسلمةً كما تظن أنت الآن، لكن اضطرت إلى تغيير اسمها في السجل والبطاقة، حتى يكُفَّ الجميع عن نعتِها باليهودية، حتى يتوقفوا عن نظراتهم فور سماع اسمها، لكي تتعايش وتتكيف، حتى لا تنقرض.

سافر جدي وجدتي إلى الوطن، لم تشرق عليهما عيني من قبل.

في ذلك العام أيضًا كان هناك حدثٌ أهم، وهو ولادة التاريخ، ولادتي أنا!

كبرت قليلًا، «عبد العزيز بدري»، «ابن مليكة» كما صار ينعتني أهل الحي وأطفاله. حينما وصلت إلى العام الخامس من عُمري، كثرت مشاكلي مع الأطفال بسبب لقب «ابن مليكة»، إذ شعرت أنه ينتقص مني ويجعلني كجرثومةٍ بقيت وحيدةً بعد أن قتل ديتول ٩٩,٩% من الجراثيم أبناءِ عمومتها.

كانت النتيجة أننا انتقلنا إلى سكنٍ جديدٍ في صِرْم الجديدة، ولكن بعد أن أخذت أمي مني وعدًا وقسمَ رجالٍ كما أخبرتني، أنني سأعود لأسكن في بيتنا القديم حينما أكبر.

قالت لي: «ستعود إلى حارة اليهود حينما تكبَر، لأنك لن تكبَر إلا إذا عُدْت، هناك جزءٌ كبيرٌ منك ينتظرك يا عزيزي، ينتظرُك لأنك المُنتَظَر».

لم أفهم قصدها، ومع ذلك وعدتها لأني أحبُّها وأشبهها كثيرًا، على عكس ذلك «الدخيل» الذي يعيش معنا في البيت، والذي أكرهه ككرهي القطةَ السوداءَ التي دائمًا تفزعني على السلم.

أمي كانت دائمة الاهتمام بي، كانت تشتري لي كل أسبوع لعبةً جديدة.

❀❀❀

لا عمر كاس الفراق المر يسقينا
ولا يعرف الحزن مطرحنا ولا يجينا
وغير شموع الفرح ما تشوف ليالينا

كان صوت «أم كلثوم» التي يعشقها أبي.

وقتها حدث ذلك الأمر الذي زلزل كل دواخلي، رأيت أقبح ذنب وفعلت أكبر ليتوبَ أبي.

آنذاك كنت في التاسعة، أتذكر حينها أن أمي كانت تتسوق، في حين ألعب أنا مع أطفال الشارع، أردت أن أتبول فصعدت إلى المنزل وفتحت بابه، وقد كان يحتله كالعادة صوت «أم كلثوم»، وإذا بي أسمع صوت حركة في غرفة النوم، فتسللت ببطءٍ حتى تجمدت كالذي صعدت روحه إلى السماء وأضحى جسده صلبًا.

لم أكن أقوى على مثل هذا، سماوات الربِّ تهتز الآن! فماذا يحدث لي أنا؟! إنهُ يخون أمي، على سريرهما، وبدا منغمسًا بحرارةٍ مع تلك العاهرة إلى الدرجة التي لم تُشعِره بوجودي ولم تَشعُر هي الأخرى.

اعتلت جسدي القُشَعريرة فتحركت نحو المطبخ، ولحُسن حظي فقد وجدت سكينًا كبيرةً على رفِّ المطبخ، أخذتها وانطلقت حتى الغرفة، جثوْتُ على ركبتيَّ وتسللتُ كأنني قاتلٌ محترف، بينما يغطي صوت «أم كلثوم» على صوت حركتي.

يا حبيبي.. يلّا نعيش في عيون الليل
ونقول.. للشمس.. تعالي تعالي..
بعد سنة.. مش قبل سنة

وصلت إلى أول السرير، سحبتُ السكين بعدما انعكست رقبته في دموع عينيّ، ثم قمتُ فجأةً وانهلت على رقبته بالسكين حتى نحرتُها. لم أنسَ قط ملامح وجهه وعينيه اللتين كانتا تحملان حزنَ العالم. كانت تلك هي اللحظة الأولى التي أشعر فيها أنه تذكَّر أنني ابنه الوحيد، شعرت بحسرته تحومُ في المكان، وأحسست بروحه تريد أن تحضنني بندمٍ شديدٍ يعوض كل ما مضى، ولكن كان ذلك في أثناء خروجها، هو لم يصرخ، بل فقط مات.

أنا واقفٌ كما الأصنام لا أتحرك، لا أقدر أن أُحرِّك ملامحَ من وجهي حتى.

دي ليلة حب حلوة
بألف ليلة وليلة.. بكل العمر
هو العمر إيه غير ليلة.. زي الليلة

نهضت العاهرة عن الفراش وهي مذهولة، لم تصرخ من أثر الذهول هي أيضًا. كنت أريد قتلها، حاولت أن أخطو خطوةً واحدةً لأقتلها، ولكن سكيني لم تُصِب سوى معصمها، فهرَبَتْ.

كنت قاتلَ أبي وناحرَ رقبته وأنا في سنٍّ صغيرة، تسعة أعوام فقط!

سمعت صوت خطواتٍ تقترب، حولي الدم وهناك خطوات ترعب أواصري كلها؛ يدي، الدم، سكين، رقبة أبي!

ارتعدت، مثانتي الممتلئة أفرغت كل ما في جعبتها في سروالي الصغير، دائمًا أجد رهبة الانتظار والخوف أشدَّ من المخيف نفسه. حين اشتد ذلك الكابوس وجدت أمي هي صاحبة كل تِلك الخطوات، فذهبت وارتميت في أحضانها وقلت لها: «أخبريني فقط أنني بخير، حتى أكون بخير».

نزلت الدموع من عينيها، بدا الحبُّ الصادقُ يبكي على ذِكرى الحبيب، شعرت بتلك الصور التي كانت تسردها لي عن قصة حبهما، شعرتُ بطعناتٍ تحدثني عن ألمها على زوجها وحبيبها الخائن الميت. كان من السهل تمييز أن وضعيته وهو ميت وضعية خيانة.

ساد الصمت لدقيقتين، حتى سألتْ بصوتٍ متلجلج:

- ما الذي حدث؟!

أجبتُ بصوتٍ ضعيفٍ خائف:

- دخلتُ البيت فوجدت أبي يخونكِ يا أمي، فلم أشعر بنفسي إلا بعدما ذبحته.

- أتُخرِج من الدنيا من أدخلَك إليها؟!

تذبذبتُ واسترسلت:

- أوَليس هذا دخيلًا؟!

فقالت والدموع تُروِّض عينيها اللتين تشبهان عينيَّ كثيرًا:

- بل إنه أبوك!

ظلت تبكي معي وتزيد بكائي، أمسكت بي وهزَّتني إلى الخلف وإلى الأمام، ثم قالت لي:

- سأُواري جثتَه قبل أن تأتي الشرطة وتأخذك مني، أريدك أن تدخل غرفتك ولا تخرج الآن، كُنْ رجلًا، لا تبكِ حتى لا يسمعك أحدٌ يا صغيري.

أمسكت يدها ورددت:

- سأحاول.

ثم أدرت ظهري وذهبت إلى غرفتي لأجلس وأغلقت الباب، شعرت وقتها بأصواتٍ تُقاتِل، دماغي كاد ينفجر من أثر تلك الصرخات التي شعرت بها في أذني، كما لو كان أبي، كان صوت الصراخ كأنه صراخ أبي.

❀❀❀

بعد مرور ثمانية أعوام، أُصيبَت أمي بمرضٍ خبيث، علمت أنه سرطان في الدم، وقتها علمت سبب تسميته؛ السرطان هو فقدان

عزيزٍ ببطء، فقدانه بالطريقة التي تجعلك تفقد ذاتك، كنت أفقدها وأفقد نفسي، تعبت هي من مشوار الحياة فلفظت أنفاسَها الأخيرة، ومن حظي أنني كنت بجانبها، وجهها ذبل ككل أوراق النرجس حينما حزنت حزن الوداع، حاولت أن أتمسك بها كي لا ترحل، قلت لها:

- لا ترحلي، أنتِ الأخيرة، ليس لي غيركِ هنا، إن كنتِ تنوين الرحيل فخُذيني معك، حتى إن كنتِ ذاهبةً إلى الجحيم، خذيني معكِ ولا تتركيني هنا، العالم أكبر من أن لا يدوس من هم مثلي!

شاورت بسبابتها إلى سريري، ثم ماتت، تركت صغيرها للذئاب دون حتى عود كبريتٍ يُنير المكان له قبل أن يؤكل.

دُقَّ بابنا في ذلك الحين، وإذا بأهل المنطقة كلهم صاروا في بيتنا، أو في بيتي وحدي الآن، وجدوني أبكي فسألوني:

- هل أنتَ بخير؟

فأجبتُ وأنا أنظر إلى الداخل خلفي:

- أمي ماتت!

فتركوني جميعًا ودخلوا مهرولين إلى المنزل، لم يقف أحد ليرى المستقبل والحاضر يحترقان في عيني، لم يقف منهم سوى «سبأ»، الصديقة الوحيدة لي مُذ أتينا إلى هنا.

ضمَّتْ قبضتيَّ على بعضِهما وضمَّتهما بكلا يديها الناعمتين، الكفوف الأربعة صارت واحدًا وقتها. نظرتُ إلى عينها، فكانت تلمع بحزنٍ وهي تقول:

- أنتَ لست وحدك، أنا معك حتى تغيب شمسي.

جلستُ على الأرض في يأس، فتابعَتْ:

- ابكِ يا عزيزي، سيمسح كفَّايَ دموعك دائمًا.

كانت جملة «لا إله إلا الله» تحوم في المكان من كثرة ما قال الناس، أتت امرأة ذات جسم ممتلئ وقالت شيئًا جعل العبث آكلًا لدماغي:

- لقد رأينا أمك تصرخ من الشرفة بأنك مُتّ، ولما صعدنا الآن وجدناها هي التي ماتت!

لم أعد أدرك أي شيء، بل إن شيئًا ما لم يعد يُدرِكني! ليس عندي القدرة على التفكير، أصبحت كل رغباتي تنحصِر في اللا شيء، أريد أن أكون لا شيء، أريد أن أكون من العدم.

أخذوا أمي إلى غرفتها ومنعوني الدخول، دخلت فقط امرأةٌ ترتدي شيئًا أسود على وجهها ولا يظهر منها غير عينيها، ولمَّا خِفْت على أمي وحاولت الدخول لأعرف ماذا يحدث، منعني الناس وقالوا إنه مُحرَّم عليَّ الدخول الآن، فهي تُغسَّل!

مرَّ ما يقرب من ثلاث ساعات، كان أذان العصر، مسكت «سبأ» يدي ونزلنا من البيت مع الناس، وصلنا إلى عتبة مسجدٍ وأمي محمولة داخل خشب، حينها وجدت «سبأ» تقول لي:

- هيا، فلتدخل يا عبد العزيز المسجد لتصلي صلاة الميت على والدتك مع الناس.

فاضطربت تعابير وجهي، ترددت أن أخبرها بالحقيقة، أنا لم أكن مُسلمًا يومًا، بل أنا... أنا يهودي!

- ألا تسمعني يا عبد العزيز؟! فيمَ تفكر؟

فأردفْت:

- لكن...

فسألَتْ بتعجب:

- لكن ماذا؟!

توترتُ وأنا أجيب:

- لكن لا أعرف كيف أصلي.

فقالت لي:

- كثيرون لا يعرفون كيف تُصَلى الجنازة، بسيطة، افعل كما سيفعل الناس، والآن هيا اذهب وتوضأ.

تركتها ودخلت المسجد وأنا حتى لا أعرف ما هو الوضوء، لكن جاءتني فكرة، فسألت شخصًا في المسجد:

- أين مكان الوضوء؟

فشاور لي إلى حمامِ المسجد، ذهبت فوجدت الناس تغتسل بالماء، فراقبت أحدهم وفعلت مثله، ثم ذهبت واصطفَفْتُ معهم في صلاتهم. كانت عينايَ تراقبان الشخص الذي أمامي، وأذنايَ مُصغِيتين حتى أفعل ما يفعلون، فسمعت «اللّٰه أكبر»، فكرَّرتُ مثلهم «اللّٰه أكبر»، تلك الجملة التي أشعرتني بمزيجٍ عجيبٍ من الضعف والراحة، كل شيءٍ أصبح في مكانه فجأة. كم كنت أحسد المسلمين على هذا الشيء الذي يمتلكونه! فصلاة المسلمين لا تعرف سوى راحة القلوب، هذا الفعل روحانيٌّ إلى حد السحر بالتأكيد.

غادرَتْ أمي إلى التراب ولم يبقَ لي أحد في الدنيا، ولا حتى أقارب، كنت أقول لكل من يسألني عن أقاربي إنني قطفٌ من شجر الجنة وقعَ وحيدًا في الدنيا. هكذا كانت تجيبني أمي حينما أسألها السؤال ذاته أيضًا، عرَض عليَّ كثيرون أن أذهب لأبيت معهم، ولكني صمَّمتُ أن أبيت في منزلي.

❀❀❀

استيقظت في منتصف الليل على صوت أمي تُناديني، فأجبت: «أمي!»، ثم نزلت عن سريري، وإذا به مُحاطٌ بالنيران على شكلٍ بيضاوي. كنت أنظر تحتي قبل أن أرجع إلى سريري خوفًا من النار، وحين نظرتُ أمامي وجدت أمي وقد اختفت عيناها الخضراوان وأصبح مكانهما فارغًا، وجدتُها تقف بعد النار التي تحيط بالسرير، لم تكن وحدها، بل كان معها ثلاثة أشخاصٍ يلتفون حول السرير من خارج النار، جميعهم بلا أعين.

اقشعر بدني وانكمشت، ثم فجأةً شاوروا جميعهم بسباباتهم إلى أسفل وسادتي، فنظرت إلى الوسادة ثم حركتها ورفعت الفراش، فوجدت شيئًا غريبًا جعل الجميع يختفي، وجعل الأمر برُمَّته كابوسًا، حتى أفقْتُ منه على شمس الصباح، التي لم تُفتَح لها الشُّرفة، ليتأكَّد لي موتُ أمي.

الكابوس لا يزالُ يتراقص أما مُقلتيّ، منظرهم جميعًا وهم يشاورون بخِنصرهم إلى...

إلى تحت وسادتي!

❀❀❀

للرعب مخالب أحكمت قبضتها على مُخيِّلتي، ثم رأيت الواقع يدفع بيدي نحو السرير، فرفعت الوسادة، وإذا بشيءٍ لم يكن،

فرفعت المرتبة، وكانت عيناي مرةً أخرى لا تلمحان شيئًا، فأخذت شهيقًا إلى أن سمعتُ زفرةَ فمي ولساني وهو يحطم الصمت ويقول: «إنه مجرد لا شيء، الأحلام ليست إلا لا شيء»، قررت أن أُنزل المرتبة عن مُستقرِّها، وإذا بيدي تستشعر ملمسًا غريبًا لم ألمسه قط. وقعت عيناي أمامي، فوجدت أن شيئًا يختبئ في الجزء الخلفي من المرتبة، هو شيءٌ ربما وارَثْه السنون وداعبته الآلاف منها، فسحبتُه من كِسوة المرتبة، ثم انتشلته بأصابع يديَّ الاثنتين ورفعته أمامي، ليظهر مفرودًا قويًّا، لمع بنسيجٍ وعطرٍ لم يعرفه هذا الزمان، كأنه مُسقَطٌ من الجنة!

القميص لم يكن عليه أي شيء، يسوده فقط لون يلهو في ساحة البني والأحمر، قرَّبته إلى جسمي لأرى إن كان يناسبني، فتدلَّت منه ورقةٌ وسقطت على الأرض. تركتُ القميص على السرير وانحنيت لأمسك بالورقة، فتحتها وإذا بها قد احتوت سطورًا كثيرة، ثم راحت عيناي بتعجبٍ إلى أولها، فقرأت ما لم أفقه منه شيئًا وقتها:

«من والدة المُخلِّص.. إلى ابنها».

## -٢-

الماضي هو الشيطان الأكبر الذي سيظل يُحرِّض أفكارك،

لتغتالك كل ليلة!

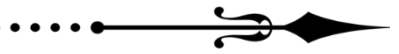

**الاثنين، ٢ أغسطس ٢٠١٠..**

**- ماذا يحدث إذا ألقيتَ نردًا أرقامه (١-٦)، ووجدت رقم سبعة؟! أسمعك وأنت تحاول التفكير، ولكن صدقني، لن تصل إلى شيء! لماذا من الأساس تمسك هذا الكتاب؟! دعه ودعني أخبرك أنك إن حصلت في النرد على رقم سبعة، فحتمًا ستجدني أمامك الآن. أتفهمني يا عصمت؟!**

**- نعم، أفهمك.**

**تحركت يده اليمنى وأعطت لي كتاب التاريخ الذي كنت قد أعرته إياه، شعرت على وجهه بعلامات الامتعاض وعدم الفهم، هو هكذا دائمًا لا يفهمني، لكنه إلى جانبي. أردت توضيح ما توارى عنه، أردت أن أخبره أنني أنا المستحيل الذي حان وقت حدوثه.**

**ستةٌ وثلاثون عامًا على الأرض، زادتني لحيةً مُهندمةً شقراءَ ترافق وجهي الأبيض، شعرًا كثيفًا أصفرَ ألفُّه من كثرته، عينين خضراوين واسعتين كما عيني أمي التي ورثتُ كثيرًا من جمالها وزاد إلى الضِّعفين فَصرتُ أنا. أنا الذي لا أمتُّ إلى الصفة العربية بشيء، حتى الرَّعاع من العساكر هنا دائمًا تتغير ملامح وجوههم حينما يرونني، كأنني غريبٌ أو أتيتُ من السماء.. أو أتيتُ من السماء!**

آخ! نسيتُ أن أخبركم، هذا صديقي الضابط «عصمت»، تتساقط منه دائمًا قطرات العرق، لا تحتاج سوى أن تنظر نظرةً واحدةً إلى وجهه حتى ترى أسوان تتراقص في عينيه السوداوين اللامعتين، هو دائم الاهتمام بأسنانه، فهي نور وجهه الوحيد، بل إن لأصحاب البشرة السمراء نورًا لا يمكن لمجرد جسدٍ أن يحمله على بشرتِه، نورًا قد أضاء قنديلًا داخل أرواحهم. هذا النور دائمًا ما يجذبني إليه، دائمًا ما أشعر أنني الذبابة التي أحبَّت صُحبَته وانجذبت إليه دون أن تعرف السبب. ليس لي من صاحبٍ غيره هو و«سليم» الذي لم أرَ شخصًا في حياتي يحبني مثله، هؤلاء بالطبع لهم مكانة وطفلتي الفاتنة «سبأ» لها مكانة أخرى. لقد قاربَتْ أن تكون في مثل سني ولم تتزوج، لأن عينيها لم تلقيا سلامًا آخر غير سلامي على قلبها، منذ الصغر ونحن متعاهدان على البقاء، أننا باقيان حتى الفناء.

على الرغم من أن أهلها نقلوا منزلهم منذ زمن، فإن الحب بيننا كان يجعل كل الطرق خاوية، ويجعلني أرى بيتها بوضوح.

ما يمنعني الزواج بها سوى وصية من وصايا أمي التي وجدتها في صغري، لقد نفَّذتُ نصف الوصايا، دخلت الكلية الحربية، وكان أمر قبولي فيها وأمي ذات أصل إسرائيلي أمرًا مستحيلًا، لولا تدخل فردٍ من جماعة الكبار، ولولا بقاء أعينهم عليَّ من بعيد لما كنت الآن العميد «عبد العزيز بدري حسين»، لما كنت حصلت على كل هذه

الترقيات بتلك السرعة، إلى الدرجة التي جعلتني قائدًا لأفراد دفعتي.

العمل هنا سهل ما دمنا نمتلك كِباشًا للتضحية؛ الجنود الصغار هم خير كباشٍ للا شيء، اللا شيء الذي يضمن لك الحكم ثلاثين عامًا، أو ستين، أو أكثر بكثيرٍ مما تظن.

عليك أن تعلم أن الحياة هنا ليست سهلة، أقصد بهذا تلك الأسطر التي أشفق عليك من قراءتها الآن؛ الموت هنا سرمدي، ليس له بداية، والأسوأ أنه لا يمتلك نهاية، برزخه أزلي بين كل شيء.

أنهيت يومي ثم ركبت السيارة، كأن شيئًا جديدًا سيحدث! أخرجت هاتفي، أشعلت سيجارة حشيش، أخفضت صوت موسيقى الروك ثم أجريت اتصالي المعتاد لكل خميس.

- عزيزي!

أجبت وأنا أنظر إلى الأمام:

- أتمنى أن يكون كل شيءٍ ساخنًا وجاهزًا، أنا لم آكل منذ أسبوع.

تصاعدت وتيرة ضحكاتها في الهاتف ثم قالت:

- لا تقلق، كل شيء ساخن، بل وأُعِد خصيصًى لك.

ابتلعت رغبتي، زمَمْتُ شفتيَّ وقلت:

- سآكل هذا الطعام بكل جسدي.

تصاعدت ضحكاتها أكثر كأنها تُسقِط ثيابها لي، واسترسلت:

- والطعام ينتظرك يا عزيزي، ينتظرك بكامل حرارته!

أغلقت الهاتف بعد أن أخذت نفسًا عتيقًا من الحشيش وأدخلته إلى رئتي، لتسحبه إلى قلبي وتضخه إلى أواصري كلها، وأزفر أنا ما تبقى من دخانٍ يتلون بالأحمر ويرسم أمامي ليالي حمراء، جعلتني أنسى أسِجارتي أشعلتُ أم جسدي حتى يلوذ بجسدها في كنفٍ واحد.

كان مستوى موسيقى الروك قد ازداد مرةً أخرى، تأكدت أن كل نوافذ السيارة مغلقة حتى لا يطير الدخان، ما لبثت إلا ثوانٍ معدودات ودهستُ فجأةً شخصًا بسيارتي، فأوقفتها وسحبت سلاحي حتى أطمئن على الشخص الذي دُهِس بطريقتي الخاصة. خرجت من السيارة، وسمحت لدخان الحشيش أن يطير، ثم ذهبت ناحيته وسْط الظلام، وإذا به غارقٌ في بركةٍ من دمائه. نظرت إليه فوجدته ممشوق القوام، ذا عينين واسعتين خضراوين، ولحية وشعرًا أشقر كثيفًا يلفه أعلى رأسه، إنه.. أنا!

شُلَّت يداي، لم أقوَ على الحركة، وفجأة أمسكَتْ جُثتي يدي، ونظرت جثتي إليّ، ثم أظهرت فكَّيها الخاويَين إلا من بعض

الأسنان، وشدت على يدي أكثر فصرت ألامسُ الموت كطفلٍ يلامس سارقه، ومن ثم نطقَتْ بصوتٍ غليظٍ يسمعه الأصم:

- إنك لأنتَ يوسف!

فتحركتُ فجأة ثم وجهتُ مسدسي نحوها بشكل سريع، ثم ظللت أضغط الزناد وأطلقُ عليها النيران. وفي غمضة عين، لم أجد شيئًا، كأن الأمر برمته سراب!

استشاط عقلي وذهني، انحنيت لآخذ قسطًا من الأكسجين، بعدها ذهبت سريعًا إلى سيارتي وركبتها، لكنها لم تشأ الدوران، حاولت مرة ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة، وفي الخامسة دارت، ضغطت دواسة البنزين بقوة فشعرت بثقلٍ لزج، نظرت أسفلي، فوجدت قدميَّ في الوجه ذاته الذي يشبهني، داخل فمه، كأنه يأكلها أو يُمصمِصها، فارتعدت وركلته بقدمي الأخرى، فلم أجد شيئًا!

لم أعلم ما هذا أو من أين أتى، ولكن أيًّا ما كان، كيف طاق رائحة قدمي؟! أنا لم أغسلها منذ يومين!

❀❀❀

وصلتُ توًّا إلى منزلها، وأنا أرتجف، حاولت أن أتمالك ذاتي وما تبقى مني، لكني لم أجد مستقرًّا فاستندت إلى بابها. طرقت الباب

وأنا أبتسم، أقبلتُ على ما لم أتذوق منذ أسبوع، قلت لذاتي: «الآن ليس وقتًا لأي شيءٍ غير تذوق اللحم الساخن، اللحم الحيّ!».

فتحت الباب وهي تلبس قميصًا يتدلى على خاصرتها ويظهر ما امتلكت من أنوثة طاغية، تغوي الشيطان نفسه وتنسيه ذاته، بعينين زرقاوين وشعر بُني وملامح فاتكة للذهن ومثيرة، جسدها المرسوم لا يقوى على رسمه دافنشي نفسه، هي سريرٌ خُصِّص لكبار الدولة، ولكنها مغرمةٌ بي أنا، لي عندها يومٌ كامل، أكون أنا سيد فِراشها.

دخلت فنسيتُ كل ما حدث، بمجرد أن خلعت عني وعنها ملابسنا، وأُسدِل الستار حتى...

والآن أظن أنك تنتظر مني أن أُطلِق العنان لخيالك كي تنساب شهوتك منك وأنا أخبرك كيف ضاجعتُها، لكني لن أخبرك بأي تفاصيل، أوَتدري لماذا؟! لأنك سافل وأنا مُهذب، أفعل ما لا أقصُّه على أمثالك.

في المرة القادمة، حاول أن لا تسمع أو تقرأ عن شيءٍ أنت أعقم من أن تفعله؛ المكان هنا للسادة، المكان هنا ليس للشعب.

لا أحب العصبية مطلقًا، لكن أنت من اضطررتني إلى ذلك حينما شعرت بعينيك تلهثان.

والآن دعني أكمل حديثي عن فاتنتي وليلتي.

هي عاهرة، ووحدهن العاهرات يعرفن كل شيءٍ في هذا البلد. خرجَت من ضلعي وارتمت إلى كتفي، أشعل كلانا سيجارة، نظرنا إلى أسفل السرير كأنه العالم الذي نسخطه، لا يدرك بعض البشر أن السرير هو المركب الذي حمل سلالتهم ألوف السنين حتى تستمر إلى هذا الحين، أخذت هي نفسًا من سيجارة الحشيش التي تأويها، ثم أطلقته في فمي، فصرت أتذوق فمها والحشيش. شقَّت الصمت وقالت:

- علمت أمس بوجود حركة انتقالات كبيرة ستحدث في الجيش، أتمنى أن لا تطالك بالهراء يا عزيزي.

ابتسمتُ وقلت:

- يا فرحة المريخ!

رسمت بعينيها علامات التعجب وقالت:

- أسعيد أنت؟! ألا تخافُ أن تطولك؟

لمعت نواجذي وأتبعتُ بقولي:

- تكفي تلك الأقدار لأصعد إلى السماء؛ مهما بلغت المصائب فهي لن تتعدى كونها مهدًا للوصول إلى مُبتغاي.

حركت يدها على صدري وأخبرتني كم أنها ليست مهتمة بلُغتي ولا حديثي غير المفهوم ولا تقلُّباتي الهائلة، وأنها فقط مُهتمَّة بجسدي، جسدي الفاني يُفنيها غرامًا بي.

انتهى كل شيءٍ بحلول الصباح.

❀❀❀

زَدَرت الشمس وأضاءت كل شيء، أيقظني رنين هاتفي فنظرت إلى الشاشة، ثم رحت بإصبعي لأجيب، ولكني أغلقت عن خطأ، لم أهتم لأن عينيَّ ثبتَتا تحت جفنيَّ ولم أستفق لأرى من اتصل.

تركت الهاتف وبحثت يدي عن «فيروز»، لم أجدها فأدركت رحيلها. سمعت صوت أذانٍ بدا لي ظهرًا قبل أن أكتشف أنه العصر، أقمتُ العزم ثم تحركت، صعوبة الحركة والرغبة في النوم الكثير ما هي إلا أعراض لحفنة زمانٍ من الأيام تُدعى الجمعة.

استهلكت ما يقرب من تسعين لترًا من الماء وأنا أستحم وأفكر في كم البشر الذين لا يجدون شيئًا منه، انتهيت وارتديت ملابسي ونظرت إلى ساعة هاتفي، وإذا بسبع عشرة مكالمة فائتة، غير التي رفضتُها بالخطأ، وكلها تعود إلى «سبأ»، فاتصلتُ بها ثلاث مرات ولكن بدت لي نون النسوة واضحةً جليةً كقُرص الشمس، فالنساء لا تزورهن عزة النفس والكبرياء، إذ إنهنَّ يمكُثن عندها طيلة الوقت،

بخاصة الكبرياء! الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الكبرياء، ثم الحب.

سأذهب إليها كالعادة، فهي كهفي الوحيد في هذا العالم، لكن بعد أن أزور زيارة السبت في الجمعة في معبد «موسى بن ميمون»، العم «إسحاق» هو اليهودي الوحيد الذي لا يزال هناك ليرعى المعبد الذي أصابه العجز وملأت جدرانَه المتهالكة ثغورٌ لا تحوي إلا خيوط الشمس القريبة بقرب بعض أصابعي من بعض. خطوت إليه ومع كل خطوةٍ كنت أستنشق الماضي وأشعر به يقترب ليتغلغل داخلي في حواشيَّ، كلما اقتربت رأيت صورة شخصٍ في حَضْرة شهوته تبوح رقبته بكل الدماء، كأنه أخطأ، كأنه نُحِر، كأنه أبي! وها أنا ذا قاتله، ها أنا في مقتلِه، ها أنا في «حارة اليهود»، آفة كل الحارات.

لا يجبرني على المجيء هنا سوى وصية أمي، التي كنتُ وأنا أقرأها أريدها أن تحيا لأخبرها أنني أُحبها وأؤكد لها أنها أنجبت رجلًا بوسعه أن يمتلك الشيء دون الذهاب إليه، ولكني اضطررتُ إلى الذهاب لأنها لن تسمعني بعد الماضي، حتى العم «إسحاق» الذي أذهب إليه هناك لا يسمعني، لأنه أصم، ذلك العجوز الأغبر ذو الجسد الهزيل والرأس الصغير والصلع النابت في رأسه الأبيض، لا يملك من الدنيا سوى ثلاث دقائق يتكلم فيها ثم يرحل بشكل غريب. أتعجب لتلك الوصية، ألم تجدي يا أمي شخصًا آخر أذهبُ إليه غير

هذا؟! أهذا الذي سيرشدني لأكون صالحًا؟! إنه حتى لا يسمع! لو سمع لأخبرته أنني لست الشخص الصالح لهذه المهمة، أنا أفعل كثيرًا من المحرمات، كيف لهذا القدر الذي تدَّعون وجوده أن يختارني أنا؟!

وصلت إلى المعبد، عبرت بابه، دخلت بكل انسيابية، هذا المكان الذي أمقُته وأشعر دائمًا بوجود من يراقبني فيه، ليس ملائكة الرب، بل أشعر أنهم أشخاصٌ هنا على الرغم من أن المكان خاوٍ إلا من العم «إسحاق». دخلت إلى المعبد الذي تضيئه شموعٌ بشكل بدائي، وخرج لي العم «إسحاق» برداء الحاخام المعهود، نظر إلى الأمام وأعطاني ظهره، ثم قال بصوت راوٍ حاد:

- لم يظهر رجلٌ مثل موسى مِن أيام موسى غير موسى!

أنعمتُ السمع أكثر فيما أخذ هو يكمل:

- موسى بن ميمون كان يشبه كثيرًا النبي موسى، في علمه ومكانته بين الناس، له وجه مستدير وعينان واسعتان ولحية وشارب، يشبهك بعض الشيء لكنك أجمل. عانى موسى كل معاناة اليهود، اضطُهِد في قرطبة، ثم ذهب إلى فلسطين ليتنشق رائحة العهد، ثم ذهب إلى صِرْم واستقر فيها، بل وعمل حكيمًا عند الأمير نور الدين أكبر أولاد صلاح الدين الأيوبي، ومات قبل أن يكمل

السبعين. لم يكن شيخًا عاديًّا، بل كان يملك السر الأزلي الذي أَورثَك إياه الآن، أظن أنك يجب أن تستعيد معبد جدك في أسرع وقت.

تحرك تجاه إحدى الغرف، شاور بخنصره وقال:

- أنتَ المختار المُنتظَر!

فأردفت:

- أنا الذي سأُسكِن الرصاصَ أجسادَ أهل الشر.

دخل إلى الغرفة، واختفى عن نظري في مدةٍ أوشكت أن تكون بين ثلاثِ إلى ستِّ دقائق. وفي أثناء طوافي حول المكان، لم أجد البئر التي ذكرت أمي في وصيتها أنها هنا، مما جعلني شريد فكري وعقلي، حتى ظهر العم «إسحاق» مرةً أخرى وكان يمسك بيده كوبًا، فأعطاه لي بمحتواه وقال بصوتٍ ضئيل:

- اشرب، فإنه مقدس.

سألته:

- ما هذا؟

ثم تراجعت وتذكرت أنه أصم. أمسكت الكوب بما فيه، فشاور لي بخنصره الإصبع:

- اشربه كله دفعةً واحدة.

شربته دفعةً واحدةً في ثانية لأثبت له قدراتي، وقلت في ذاتي: «هذا الشراب المقدَّس أشعر أنني أشم رائحته بشكل يومي!»، حينها تحرك رأسه كأنه قرأ تفكيري، وقال بكل بساطةٍ ويُسْر:

- هذا بولي.

في تلك اللحظة شعرت بانقلاب معدتي عليّ، فأخذتُ أتقيأ في زاوية أحد الجدران، ولولا وصية أمي لكان ذلك العجوز في تعداد الموتَى! انفعلت ووقفت مُشتعلَ الملامح غاضبًا، فقال:

- تحمَّل وخز النحل، حتى تنول العسل.

كززتُ على أسناني، فتابع هو:

- بولي هذا يُصعِدك إلى درجةٍ جديدةٍ تنول بها رضا الرب.

جمعت كل لُعاب فمي الملوث، ثم بصقتُه بصقةَ مَدفَعٍ إلى الأرض، ثم رحلت. أيُّ ذنبٍ قد اقترفتَه يا «موسى يا بن ميمون» ليكون هذا السفيه الأصم حاخام معبدك؟! بل أي ذنبٍ قد اقترفتُه أنا لتكون أنتَ جدي القديم يا «موسى»، لأجد نفسي مع هذا؟!

على العموم، انسللتُ وتركت كل هذا لأُدرِك موعدي مع «سبأ». تكاثرت عليَّ الأعباء ولم تجد لها مُستقَرًّا إلا داخلي، فلم أعُد مُستقِرًّا منذ زمن؛ يتعبُني أنني وحدي أواجه كل مخاوفي، يتعبُني أنني بعيدٌ عن كل الخير، يتعبُني أنني لست بخير، دائمًا.

أتعجب لذاتي، فحينما أقرر الذهاب إلى «سبأ»، أجدُ الطريق مليئًا بنسماتٍ تمزجُ بين الفجر والبحر، يداعب الأمر أواصري لبُرهةٍ فأجدني كبطريقٍ نَمَت له أجنحةٌ كثيرةٌ وصعدت به إلى السماء، دائمًا ما أرى نعيم «سبأ» ثم أهبط إلى الدُّنيا كأنني أولدُ من جديد.

سبحان من بدَّل أشواك الطريق بالأزهار! سبحان من بدل حريق دواخلي بالأمطار! سبحان من علمني كيف أختار حينما اخترتُكِ لقلبي يا «سبأ»!

أمامها فقط أتلعثم! حاولت أن أكتب لها مرسالًا ذات مرةٍ ينوبُ عن تذبذب كلامي، لكن لم أعلم كيف يمكن للمرءِ كتابة تلعثمه.

في كل جمعة، نجلس في أحد المقاهي وسط القاهرة، ذهبت إلى المكان ورأيت البدرَ مستترًا بحجاب التعفُّف، هكذا تبدو دائمًا، إن حجابها ورداءها الوردي يجذبانني كالنحلة التي تبحث عن الرحيق. على الرغم من وصولها إلى الثلاثين من عمرها، ملامحُها لا تزال تدل على أنها ابنة العشرين؛ جسد ممشوق وعينان يخبرانك أن للعسل مصادرَ أخرى وخلايا أخرى لا يعرفها النحل، عينان صغيرتان كأنهما حبات اللوز ذاته، أنف وفم صغير يكمل تلك الملامح الطفولية، لكن دائمًا تعجز الحروف عن وصف الأشياء الملائكية، كانت قطوفًا من السماء أو أكثر!

قدمت لها خاتمًا، فالتفتت لي وأضاءت ثغرها، لمعت عيناها، ثم قالت بصوتها الرخيم:

- قل لي إنه قد حان!

فأجبتُ وأنا أتعلَّق بكل تشدُّد:

- حُبك في كلِّ الأوقات يا سبأ، هو حائنٌ دائمًا.

أمسكت يدي تشدُّ عليها وهي تسأل بصوتٍ خافت:

- ستتزوجني أخيرًا؟

خرَّ رأسي وأجبت:

- اقترب يا عزيزتي، اقترب.

شعرت أن رأسها يريد أن يطأ الأرض في هذه اللحظة، فتابعت:

- فوَاللّٰه لا يمنعني أن أكون مع حبيبتي الحاضرة إلا وصية حبيبتي الغائبة!

وعدي لأمي بعد مماتها يُفارِق بيني وبينها، يجعلني أغترب بالدرجة التي تمنعني أن أكون ثاويًا في المشفى الوحيد لسقمي، تمنعني الإقامة في قلبها وقربها.

قرَّبتُ يدي منها ثم قلت:

- أريحي قبضتكِ وضُمِّيها إلي، فأنا لن أترُكِكِ مثلما فعل الآخرون.

تحركت أصابع يدها لتملأ فراغ أصابع يدي، انتابتني قُشَعريرة، أحكمَتْ قبضتها فتشابكت أيدينا، كما لو كنا شخصًا واحدًا دون نواقص، كما لو أنها أكملتني وملأت كل ثناياي.

تابعتُ أنا:

- إنني ها هنا، فكوني بخيرٍ إلى الأبد!

سكنتُ في منفايَ فجأة، بينما قالت في صوتٍ خافتٍ صاحب دموع عينيها:

- فلتعلم أنك امتلكتَ ما لم يمتلكه رجلٌ من قبلك، وما لن يمتلكه رجلٌ من بعدك. فلتعلم أنك امتلكتني، بكل ما أمتلك، بكل ذرات كياني، وبحجم كل ذرات الكون، أُقسم أنني أحبُّك!

بدأت أتلعثم من جديد، تلك العادة التي باتت تراودني منذ أن قتلت أبي، كلما ضعفتُ أتلعثم، كلما رأيتها أتلعثم. الأمر سخيف ويشعرني دائمًا بالعجز، كلما وددتُ أن أعبر لها عن شعوري أجد ثمانيةً وعشرين حرفًا واثني عشر مليون كلمةٍ في اللغة العربية قد هجروني.

تذبذبت وأنا أقول:

- أأأنا أيضـ... أيضًا أُحبك.

قالت وهي تزهدُ بنفسها:

- وأنا لك وحدك.

فرددتُ أيضًا أنني لها وحدها، ولكن سرعان ما تذكرت أنني أكذب، فجسدي دائمًا كان لـ«فيروز». أيعيبُ المرء أن يقسم بين روحه وجسده؟! وهبتُ روحي لـ«سبأ» وجسدي لـ«فيروز»، ولكن ما يُرجِح كفة «سبأ» أنها أخذت قلبي من الجسد الذي اعتلته «فيروز».

لولا أمي أيضًا ما كنت خُنت حبيبتي، لكانت الروح والجسد لـ«سبأ» وحدها دون «فيروز»، لكن تأخُّر زواجك يجعلك تبحث عن وسيلةٍ أخرى لتقضي بها حاجتك، وهذا لا يُعَد خيانةً بكل تأكيد، والتبرير أنك كالذي «لا طال سما ولا أرض»، حتى الإناث في هذه الحالة، التأخر في الزواج، يكُنَّ كالتي «رقصت على السلم، لا اللي فوق شافوها ولا اللي تحت سمعوها».

كُن خائنًا، فهذا من حقك، بخاصة لو كنت من الملاحدة؛ الملحد هو أكثر شخص وحيد في هذا العالم، وذنبه أنه لم يؤمن!

لا أخفي عليك أنني في المدة الماضية أكل الإلحادُ رأسي، ومَن منَّا لم يسأل نفسه ذلك السؤال المُحرم: «من أين؟»؟! أظن أن هذا السؤال محرمٌ عقليًّا أكثر من كونه محرمًا دينيًّا. أحيانًا أكتشف أنه عليَّ أن لا أفكر، وأحيانًا أخرى أدرك أننا لم نُخلَق إلا لنُفكِّر. لم نُخلَق! كم أحسدُ العدمَ على أنه لا شيء! كم من مرةٍ يُهشم وجداني حينما أقول: ما ذنبي بذنب آدم، أنا لم آكل التفاح!

لكن إن كان لنا إلهٌ عادل، فمن المؤكد أننا كُنا نطمع أن نصل إلى المرتبة التي لم يصل إليها أي مخلوق، يبدو أننا أبَيْنا أن نكون حيوانًا لا يفهم أو جبلًا لا يتكلم أو ملائكةً لا تُختَبر، يبدو أن طمعنا فحملنا أمانةً لم يقوَ على حملها سائر المخلوقات، يبدو أن أرواحنا هي التي اختارت هذا المصير، اختارت أن نُختَبر لتنول النعيم الأبدي.

كلما اجتمعنا، كان الفراقُ يزيد غلظته وتطول مدته أكثر بعد التلاقي، ولذلك أشعر أنه سيزيد مدته هذه المرة، شعورٌ ينتابني أن شيئًا ما سيحدث، شيئًا آخر خارقًا لكُل الاحتمالات التي يضعها رأسي كالعادة.

❀❀❀

في اليوم التالي كنت في طريقي إلى مبنًى ما أعمل فيه يُنسَب إلى الجيش، لن أستطيع ذكر اسمه؛ حفاظًا عليك «وعلى الكاتب الغلبان اللي بيكتب النَّص». دخلت كالعادة بكل الإجراءات الروتينية، وصلت إلى مكتبي بعد تلقِّي أكثر من تحية عسكرية، ملفات كثيرة تقع أمامي لسياسيين وآخرين غيرهم قابعين هنا.

هنا حيثُ يجب أن تكون أعمى حين ترى، أن تكون أصمَّ حين تسمع، وأن تكون آلةً حين تؤمر، وإلا ستجد من يُعلِّمك ويُعرِّفك لمَ صُنِعت العصا أو الصاعق الكهربائي أو حتى يعلمك كيف يمكن أن تفقد رجولتك في لحظة.

- أفهمت يا بن العاهرة؟!

ردَّ عليَّ بصوتٍ مقهور:

- أقسمُ أنني فهمت يا سيدي.

شمرتُ أكمامي ثم حركت نيشاني وقلت:

- الفهم وحده لا يكفي، عليك أن تحفظ أيضًا، حتى لا تنسى!

تقدمتُ إلى الأمام وقلت للعساكر:

- خذوه يرتع معكم، وأنا قادم لرؤيته.

ثم تذكرت وأكملت:

- آخ! نسيت أن أخبرك، إننا دائمًا نحتاج إلى لحمٍ لكلابنا، ولكن بالطبع لن نُسرِف في استنفاد موارد الدولة من اللحوم حتى لا تزيد التسعيرة على الوطن وأبنائه، لذلك فلنُعطِهم لحمًا من نوعٍ آخر حيّ.

صوت ذلك الجندي وهو يقول «لا» كان يُطربني، ولكنه لا يعرف أنني بهذا الشكل أحنو عليه وأوفر عليه عناء الخضوع للمحاكمة العسكرية، ليس لي ذنبٌ في شيء، لا تترك عينيك تنظران إليَّ هكذا بحدة! فلقد تجرأ هذا القَحْبَة ومدَّ يده على قائده حينما أصر أن ينعت أمه الميتة بألفاظٍ من المستحيل أن تذكرها هذه الأسطر المحترمة، ولأنه تجرأ وأظهر أنيابه فسأضعه الآن مع كلابنا الجائعة، لنرى من فيهم أشد افتراسًا وفتكًا من الآخر.

نحنُ البشر على الرغم من فزعنا من الدماء، فإننا نستمتع برؤيتها أحيانًا، ونجد لذةً غريبةً في رؤيتها، وإن أنكرت لي هذا آلاف المرات، فبإمكاني أن أقول لك إنك تهلع إذا حدث عِراك بالأسلحة تحت منزلك، ولكن مع هذا ترغب في رؤيتهم وهُم يهاجمون ويُسيل بعضهم دماءَ بعض، بل إنك ترغب أن يحدث هلعك وخوفك ذاتيهما وأنت تشاهد فيلم رعب، وأنتَ تنتظر اللحظة التي سيخفق عندها قلبك بشدة من الخوف، وكل هذا بإرادتك، كل هذا يُعد ضمن غرائزك وشهواتك، فعلى الرغم من أنك إنسان، دائمًا تحبسُ حيوانًا ما بداخلك، وأحيانًا تُطلِقه.

في هذه اللحظة التي أروي لك فيها عن الحيوان القابع بين قُضبان دواخلك، كنتُ أنا قد أخرجته، ليرى إخوته من الكلاب وهي تنهش جسد هذا المتمرد، مرةً من الكتف ومرةً من اليد ومرةً من تحت حزامه ومرةً من رقبتِه!

امتلأت أنيابهم بالدماء، وامتلأت طبلة أذني بمزيجٍ من نباح الكلاب وصراخهم، زممتُ شفتيَّ إلى الأسفل ثم شاورتُ بكفي، فاستكفوا وشدَّ العساكر جنازيرهم، وتوقف التصوير.

لا تستغرب هكذا، لأن هذا التعجب الذي ظهر على وجهك الآن لا يدُل سوى على أنك غبي، فالأغبياء وحدهم لا ينتهزون الفُرَص، ومقطع مصور كهذا يصل سعره على الإنترنت الأسود إلى آلافٍ من الدولارات، ألا تستحق الفرص أن تُنتَهز؟!

أنا لستُ شريرًا كما تظن، فليس المُعلِّم شريرًا أو مُذنبًا حينما يضرب التلميذ ليُعلِّمه حينما يُخطئ، وكذلك أفعل أنا هنا، ولأن قديمًا قال العرب «العصا لمن عصا»، أليس هذا ما تقولون؟!

سئمتُ كمَّ ادَّعاءات البشر أنهم أخيار! أظن أن الأرض قد ابتُلِيَت بالبشر، فيا لَحُزن الأرض بالبشر! ويا لسعادة المريخ دونهم!

بعد أن عدت إلى مكتبي، دخل إليَّ صديقي العزيز «سليم» بجسمِه النحيل وشعره البُني المُموَّج ولونه الأبيض وأنفاسه الصفراء التي دائمًا أشعُر بها، ولكني أحبُّه لأنه يحبُّني. دخل إليَّ وقال بابتسامةٍ عريضة:

- صباح الخير يا أخي.

ابتسمت له وقلت:

- بل مساء الخير، الساعة الآن الثانية ظهرًا أيها الضابط!

أردف قائلًا:

- أنتَ على حق.

ثم أتبع:

- ألن نراك قريبًا تُدير المبنى بأكمله؟

أعجبني ما قاله لأنه يدل على فهمه، فأجبت مُبتسمًا ابتسامةً ظهرت فيها نواجذي:

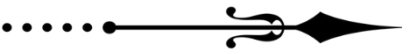

- قريبًا، قريبًا جدًّا أيضًا يا سليم.

أكمل بصوتٍ كلهُ حِنكة:

- أنت أحقُّ شخصٍ هنا بقيادة هذا المبنى، أحق من اللواء سامي العدل رئيس المبنى نفسه، أنا دائمًا أخبر الجميع وأقول لهم إنني أشعر أن عبد العزيز بدري هو رئيس المبنى القادم.

فرددت:

- وجودك مربوح، ونِعمَ الشعور.

أخرجت علبتين من الأرز والحليب المُحلَّى الذي أحبه، أعطيته علبة وملعقة ومازحته لكي نأكل، فأمسك الملعقة بيده اليسرى وكالعادة أنهى العلبة في ثوانٍ.

إحساس عظيم بالنشوة انتابني حينها، أوشكت على الصعود إلى درجتي قبل الأخيرة، الدرجة التي بعدها سأحقق وصية أمي، أتجوز «سبأ»، وأصل إلى النعيم في أرضٍ أحرقَتْها نيران الجحيم قبل الحساب.

❀❀❀

## مكان شديد الظُّلمة..

بدا لو أنه كهف، لا تستطيع الرؤية فيه، لم يتضح منهُ إلا رقعةٌ كان يضيء وسطها نار.

- إنني رأيت!

قالها شخصٌ بدينٌ ذو زيٍّ عسكري، يتدلى منه بطنه، ليرد عليه شخصٌ ذو لحيةٍ بدا كأنه مشعوذٌ بغيضٌ قائلًا:

- ماذا رأيت؟

بدأ الأول يُسقِط ما في رِجْل طيرٍ في السماء، ويقص له رؤيا أربكت داخله:

- رأيتُني في الصحراء في ظهيرة الشمس، منحورًا، رأسي قد التفت حوله الغربان تأكله، وبقية جسدي ملقى عند طفلٍ صغيرٍ أشقر، عيناه سوداوان بالكامل ولا يظهرُ منهما بياض، يرتدي قميصًا طويلًا أبيض، في إحدى يديه سكين، ويده الأخرى كان يغرسها في حاشية رقبتي، يرفعها مرة تلو الأخرى وفي كل مرة كان يرفع خنصره المغطاة بالدماء ويحركها ويهزها أمام عينيه كأنها بندول ساعة يذهب يمينًا ويسارًا، يسارًا ثم يمينًا، ثم يتمتم بكلماتٍ سريعةٍ لم أفهمها.

وحين انتهى الرجل البدين من قص رؤياه، أمسك المشعوذ فجأةً رقبته وبدأ يخنقُه بيده اليسرى، وظل مُحكِمًا قبضته عليه، أكثر ثم أكثر ثم الضِّعفين، حتى احمرَّ وجه الرجل البدين واشتعلت فيه حمرته واحتبس دمه وقلَّ أكسجينه، ثم قلَّ معدل نبضاتِ قلبه، ثم انطفأت النيران وأظلم المكان كليًّا.

فتركه، فأخذ البدين يتنفس بشكلٍ سريعٍ مُستعيدًا نفَسَه ونفْسَه، وقال وهو يلهث:

- كدت تقتلني، يا أحمق!

تتابعت أنفاسه، ليرد المشعوذ بصوتٍ خافت:

- سيقتلُك.

فاتسعت مُقلتا البدين وأتبع بخوف:

- مَن؟ مَن؟!

فنظر المشعوذ إلى أسفله وقال:

- من سيأخُذ مكانك ويكون وزيرًا، سيقتلك ليكون.

زاد غضب وخوف البدين، فأردف:

- قُل لي من، أخبرني من يكون هذا، حتى إن كان في رحِم أُمه فسأقتله.

فرد:

- صدقني، أنا الآن لا أعلم، لكن إن مررت عليَّ في ليلة السبت القادم، فسأكون قد عرفت من هو.

تملك الشخص البدين الخوف، وبدأ يقتل ذهنَه التفكير، فقد بات الآن ينتظر موته الذي لا يعرف له أي ميعاد، فربما يكون بعد عامٍ أو بعد شهرٍ أو بعد يومٍ أو الآن.

## -٣-

إن لم تأخذ قرشًا ليس من حقك، فستسرق يومًا لأنك لم تجد نقودًا .

إن جَبرت، فستُكسَر لأنك كُسِرتَ يومًا .

إن نسيت، فستتذكر لأنك لم تنسَ من البداية .

إن مررت، فستتعثر لأنك قررت أن لا تعود إلى خطئك .

سيُجبِرك الزمانُ يومًا أن لا تكون أنت !

كنت ذاهبًا لأشتري كتابًا ما، فأنا من هواة القراءة، بخاصة الكُتب القديمة والنادرة، فتوجهت إلى أحد قصور الثقافة وأردت أن أشتري كتابًا قبل التوجه إلى عملي، فقال لي البائع إن هذا الكتاب نادر وعمره قارب ألف سنة ولا يُسمَح حتى باستعارته، مسموح فقط بقراءته في المكان، فسألته: «كم عمر الكتاب؟»، فأجاب: «ألف سنة»، فقلت له: «وأنا سأشتري السنة منه بجنيه» ومددتُ يدي له بألف جنيه، ثم أخرجت بطاقةً تثبت أنني أعمل في الجيش وقلت: «لا تخف، هذه لا تُعَد رشوة، بل هي خدمة وطنية جليلة»، فأخذ المال وأعطاني الكتاب.

الأموال والكتُب دائمًا تُصلِح كل شيء، وكلها من الورق؛ الورق نوعان، نوعٌ يشبع العقول، ونوعٌ يشبع البطون، فلن ينفعك كتابك وقت الغداء، ولن تجعلك الأموال ذا عِلْم.

ذهبت إلى عملي، وفي أثناء دخولي شعرت أن الجميع ينتظرني، وأن أنظارهم قد ثقبتني كأنني فعلت جُرمًا بيِّنًا! تقدمت خطوة بعد الأخرى، لأجد اللواء «سامي العدل» ينتظرني بوجهٍ غليظٍ وشاربٍ أبيضَ مُتدلٍّ، ولم تسنح لي الفرصة لأتأمل أكثر أو أتساءل، أو حتى لأنخ، وعلى حين غرةٍ صفعني على وجهي صفعةً قويةً أمام الجميع. حاولت أن أرفع رأسي عن الأرض بعدما أُدمِيَت شفتاي، لكنه أعطاني صفعةً ثانيةً ثم أهان أمي في قبرها، فأمسكت ذاتي بكل

صعوبة وبكل ما أوتيتُ من قوةٍ صَمتّ، فتركني هو مقهورًا أمام الجميع دون أن يتحدث بسبب. دخلت إلى مكتبي فأتى إليَّ «سليم» و«عصمت»، وسبق «سليم» إلى الباب ثم دخل وقال:

- ماذا فعلت؟ أبخيرٍ أنت؟!

فأجبتهما:

- لا أعرف، أنا لا أعلم شيئًا، وفوجئتُ بهذا كله أمام الجميع!

فنظر «عصمت» ناحية الباب وأضاف:

- الجميع في الخارج يتحدثون عن أنك تطمع في منصب اللواء سامي.

وأكمل «سليم» قائلًا:

- أشعر أنك ستُسجَن، الأفضل لك الآن أن ترحل في أسرع وقتٍ حتى نرى نتيجة غضبه.

فاستسلمت وقلت:

- بالفعل، أظن أن هذا هو أفضل شيءٍ يمكنني فعله الآن.

احتضنني «سليم»، ثم «عصمت» الذي لاحظتُ أن عينيه تدمعان لأجلي. ودعتهما ثم خرجت تاركًا مكتبي، وذهبت إلى بيتي

لأكُفَّ عني الضرر ولو لبضع ساعات، حتى يتضح الخيط الأبيضُ من الأسود.

أخاف المجهول وأشعر بقربه، أشعر أنني أضعف من أن أعيش، كنت أحتاجُ إلى شيءٍ يهدئني ويجعلني أشعر أنني مطمئن، فقررتُ اللجوء إليها ولو عبر الهاتف، اتصلتُ أكثر من مرةٍ ولم ترد، فتذكرت أن هذا وقت عملها وغالبًا ما يكون هاتفها صامتًا كصمتي الآن، عملها دكتورةَ تحاليل بعد أن تخرَّجتْ في كلية العلوم يأخذها مني لساعاتٍ طوال.

فزع! تملكني الفزع وأنا أسمع صوت باب منزلي يُكسَر في منتصف الليل، أنا أعرف هذه الزيارة، لكني لأول مرةٍ أكون المُزار، اقتحموا منزلي وأُلقِيَ القبض عليّ، لم أفهم شيئًا غير أن اللواء «سامي العدل» يريد التخلص مني والإطاحة بي حتى لا أستولي على مكانه. ولكني حين وصلت وجدت أن تُهمَتي صادمة، لم أكن لأتخيل أن تُهمَتي ستكون قتل «سامي العدل»! هذا الأمر كان كافيًا لصلب دماغي، بل وشقِّه أيضًا. أنا لم أفعل شيئًا، فأنا نائم مُنذ طليعة اليوم، هكذا قلت للضابط الذي أخذني، ولكنه أخرج كتابًا وقال:

- أوَليس هذا الكتاب يخُصك؟

فقلت:

- بالطبع يخُصني، لقد اشتريته صباح اليوم.

فنظر إليَّ بحدة وقال:

- وتُرى ما الذي أتى به إلى شقة اللواء وقتَ قتله؟

فتذبذبت وأنا أقول:

- ولكن... ول...

كان عقلي على حافة الكون ينهار، أنا لم أفعل شيئًا، أنا كنت نائمًا، ولكن ما يجعلني أشعر بالجنون، أنني أُصدِّق ما لم أفعله!

فواصَلَ بعنف:

- لا تحاول أن تنكر، كل أصدقائك وكل مَن في المبنى قالوا إنك كنت تريد الاستيلاء على منصبه، وحين علِم ضربك وأهانك أمامهم بصفته قائدك. أليس كل هذا كافيًا للإشارة إلى أنك الفاعل؟! الموضوع من الأساس لا يقبل المُجادَلة، فلتعترف أنك القاتل.

فأردفت:

- فلتسمعني، أنا لم أق... أقتُل أحدًا!

عاد تلعثُمي إليّ، أنا ضعيف، أنا قتلت أبي في الماضي، فلِمَ لا أكون قاتل هذا الرجل، بخاصة أن مصلحتي في مقتلِه؟! أنا القاتل! قد أكون قتلته دون أن أدري، ولكني لم أقتله، أنا لم أقتله، كيف سأقنعهم بكلامي وأنا لا أصدقه؟!

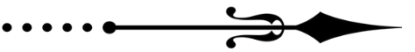

حُبِست، وبعد يومٍ كانت النيابة العسكرية قد أخذت بكلامي وألقته في اليم، واستُكمِل حبسي على ذمة القضية.

كأن اضطرابي كان يُريد مزيدًا!

السجن الحقيقي هو الذي يمنع روحك أن تلوذ بحريتها ،

السجن الحقيقي هو الجسد ،

والحرية دائمًا ما تتلخص في الموت !

## سجن أم موت؟!

أجد المصطلحين متبادلي المعاني، فالمعروف عند البشر أن السَّجْن مجرد احتجازٍ يعزل الشخص المذنب ويعاقبه، ولكن لي وجهة نظري الخاصة هنا، فأنا أظن أن أي سجنٍ في الدنيا مثله كأي مكان مهما وصلت دناوته، فالدنيا ذاتها سجن، على عكس الموت، الذي ينكسر فيه قيد الحياة ثم تلوذ الروح بنزعٍ حلوٍ يعطيها الحرية المطلقة.

فمثلًا، لو صدقت الآن أن هناك روحًا أمامك وجربت أن تشاور لها، فإنك ستجعلها تبتسم دون أن تراها.

في هذه الغرفة الصغيرة الرديئة والحمام الفاخر الكائن في الدلو الصدئ، صاحبَا السجن اللذان وجدتهما هنا معي، أحدهما حاول الانتحار أكثر من مرة، والثاني لم يُكمِل شهرًا هنا وها هو يضمن أن خروجه سيكون في خلال يومين أو أقل.

أما الذي بغى الانتحار أكثر من مرة ورفضه الموت، لم يكن له ذنب في الحياة إلا أنه رفض أن يستلم شحنة غذاءٍ لأحد قطاعات الجيش لكونها منهوبة، وكانت النتيجة أن قائد القطاع لفَّق له قضية فساد، والآن هو يدرك تمامًا أن أمه العجوز وأخته الصغيرة لن

تجدان قرشًا حتى ليملأ معدتيهما. وأما الآخر فهو سكرتير وزير الدفاع، وحتى الآن لم يخبرني بسببٍ مباشرٍ وواضح.

شعرتُ أن اللحظات يُضرِم بعضها النيران في بعض، وأنها تنفد ولكن بصعوبة، حتى وجدتُ من يفتح باب الزنزانة بزي عسكري أخفى رتبته وقناع جنود الصاعقة الأسود الذي لا يتضحُ منه إلا العين، ثم شاور لي بخنصره أن آتي، فاطمأن قلبي وعادت إليَّ ثقتي بنفسي، أنني لستُ وحدي، أعطاني فلاشةً وأشار بخنصره إلى الخارج، أي اهرُب.

❀❀❀

خرجت، نلتُ نسيم الخارج، فأول ما ذهبت، ذهبت إلى مكانٍ أعمل فيه خيرًا، هناك حيث لن يتوقع أحد أنني فاعل أو ساكن، مقابر حي الجمالية، هو أكثر البقاع رعبًا في صِرْم، وهذا ليس لكونه مكانًا للأموات، بل لأن الأحياء يغزونه، ولأن القانون لم يطُل الوصول إلى تلك البقعة، البقاء هناك للأضعف، للأفقر، للذي استقوى بأكثر من يده حتى يعيش. الأمور هناك تخبرك أنك في بلد غريب، بل إنني مررتُ بموقفٍ بائسٍ يومًا ما في الطريق إلى هنا، رأيت بأمِّ عينيَّ شابًّا وفتاةً يدخلان إلى غرفة الكهرباء ليقضيا حاجتهما كلٌّ عند الآخر، وما كان من قدمي إلا أن وطأت بعض الخطوات، حتى سمعت

صوت انفجارٍ في الغرفة، وخرج ذلك الشاب حاملًا فتاته التي ماتت في أثناء علاقته معها في غرفة الكهرباء.

نحنُ في بلدٍ قادرٍ على كسر قصص الرعب كلها، دون أن يحتاج حتى إلى ذِكْر الجِن!

وطأت قدماي الأرض التي يعيش فيها الأموات فوق الأرض، والأحياء تحت التراب، تحت عين السماء. هبطتُ من أحد المداخل ووضعت يدي على سلاحي الذي اصطحبته معي بعد أن ذهبت إلى بيتي لآخذه هو وقميصي، كنت مرتبكًا وأنا أتقدم وأرى صِرْم القديمة وعائلات من القرن الثامن عشر وأدرك انفصالهم عن هذا الحاضر وعن القرن الحادي والعشرين، كأنهم وُلِدوا في غير زمانهم، أو أتوا إلى هنا بالخطأ! السيدات هنا أجسادهنَّ عريضة، مُدرَّعات حيَّة بالفعل، والرجال هنا يُعيدون لك نظرية داروين ويفسحون المجال لعقلك حتى تدرك أن داروين أخطأ، وأن الرجل من بني الإنسان أصله «بُرْص»!

مررتُ بين العابرين بسلام، على الرغم من أنظارهم التي أشعرتني أنني قادم من السماء، طرقت باب بيتٍ وسط القبور فرد عليَّ صوتُ عجوزٍ أكلها الشيب ثم وجدتها تفتح الباب، أطلَّت عليَّ بحجابها الأبيض ووجهها الذي يطغى عليه الزمان بطغيانه كلما مر، إنها الحاجَّة «مؤنسة»، غَرْس الخير الوحيد النابت في حياتي، هي

وابنها «قاسم»، مُنذ أن رأيتها في إشارة المرور تبيع المناديل وهي أحوج الناس إليها لتزيح عنها دموعها، وكان في يدها شاب عشريني مُعاق، ذلك الشاب هو ابنها الوحيد «قاسم»، حينها كنت قد ترجلت من سيارتي وأعطيتُها كل ما في جيبي، بل وأعنتُها بعدما عرفتُ مسكنها، وجعلت لها من راتبي بعضه لتقتات منه هي وابنها. أمرُها ككُل العجائز، بمفردها ليس لها دور في الحياة إلا أنها عجوز تُعين صغيرها الذي لا تعلم كيف سيأكلُه الموت بعد موتها.

قالت لي:

- من؟! بُني عبد العزيز!

أجبتها مُبتسمًا وأنا أحمل على ظهري حقيبةً وبسمةً في وجهي تخفي أطلالَ دواخلي:

- يا فرحة المريخ!

ثم احتضنتها، فعلى الرغم من بساطة ملامحها، هي تُمثِّل لي أمي التي فوق التراب.

أخبرتها كم أنا سعيد برؤيتها وكم أن داخلي اشتاق إليها، وأني مُقيمٌ عندها لمدة.

هذا الترحاب من الطيب، لا أجده إلا عند من تخلَّفوا عن سباق المال والعلم واكتفوا بالبحث عن كسرة خُبز تُشبِع شعورهم بالجوع،

تلك الطبقة الهائلة من الفقراء الذين لا تتذكرهم الدولة سوى وقت الضرائب والحروب والانتخابات، فيما عدا ذلك فهم منسيون دائمًا. هم أنقياء، لذلك لن تجد لهم مكانًا وسط أغنياء الدولة، هم ذوو الاحتياجات البسيطة، أصحاب الرقي الروحي، الذي يتمحور في أنك كلما فقدت رضيت وحمدت ثم سعيت مرةً أخرى، هؤلاء الفقراء الطيبون هم ملوكٌ دون قصور.

على الرغم من أن بيت الحاجَّة «مؤنسة» تُحيطه القبور، وأن الليل عليه قد حان وصمت ما حوله، فإن الراحة تحوم في كل أرجائه وأركانه. بعد أن أعدَّت لي صحنًا طيبًا من العدس، جلسَتْ وعن يمينها «قاسم»، الذي آنَسْتُ أن له حديثٌ مع السماء إذ يُتمتم لها وينظر إليها من البهو، ذلك المكان الذي تختلط فيه نسمات الهواء مع زفير أرواح الموتى، وأن له حِضنٌ ذاتيٌّ من يديه المُكوَّمتين إلى صدره، وجلوسه على الأرض هو وأمه كأنهما النَّضْرة تزين الأرض.

- ما الذي أتى بك يا بني؟

كررت «يا بني» فصارت نداءً بالقلب أيقظني للرد:

- لا شيء.

أخذتْ قسطًا من الهواء وقالت:

- أنا أمتلك قلب أم، لذلك أعلم جيدًا أنك لم تكن يومًا بخير.

نَكَّستُ رأسي وأردت أن تُخبِر عيني الأرضَ أنها تمتلك هي الأخرى بحارًا ومحيطات، الناس دائمًا لا يريدون سماع بكائي أو رؤيته، كأن الأرض ستغرق بفيضانٍ إن علموا ما بي!

داخلي وطنٌ طيبٌ لما فيه من ألم، لم أتعلم كيف أخبر أحدًا عن ألمي حتى الآن، ففضلتُ الصمت.

شعرت هي بي، فبدأت تسرد:

- لا يغرك يا ولدي لوني الشاحب، ولا وجهي الذي انكمش جلده، لا يغرك يا ولدي أنني الآن أمامك عجوز بائسة، ليس ذنبي أبدًا ما تراني عليه، قد كنت قديمًا من أجمل بنات الحي، أحببتُ وأذكر أن أحدًا أحبَّني في هذا العالم، لكن أبي رفضه، ثم مات أبي موصيًا أن يتزوجني ابن عمي ليطمئن عليَّ في قبره، ومنذ حينها وأنا زوجة أحمد ابن عمي، أحببته وأسلمت نفسي للقدر ورضيت. فكان كلما يولد لنا ولد، يكون فتاةً وتموتُ في يومها السابع، وبعد سنين عجاف رُزِقنا بولدٍ ذكر، تملكنا الفرح، ولكن وجدناه غريبًا، لنكتشف أنه قد كُتب لنا أن نكون أمًّا وأبًا لكن لطفلٍ معاق. رضينا بقسمة الله، فأسميناه قاسم، أبوه أحمد كان عامل نظافة، كان طيبًا أصيلًا، لم تكن حياته إلا ليأتي لنا بما نحتاج إليه من طعام، حتى أصابه المرض، وللأسف خسر أحمد حربه مع السرطان بعد ثلاثة أعوام فقط، مات بطلًا لا تعرفه الأفلام ولا الناس، ترك لي قاسم وهو في

سن الرابعة، فصرت أعمل أيَّ عملٍ يخطر على بال أحد، وكنت أُهان من الناس كثيرًا وأتحمل، حتى صدَّ عني الناس وأهانني الزمن، فأصبحتُ عجوزًا لا نفع فيها، أبيع المناديل في الشارع.

نظرت إليَّ وأتبعت:

- أنا يا ولدي أموت كل ليلة لأنني لا أعرف كيف سيموت ولدي بعدي، أو كيف سيعيش، الناس يتركون دائمًا لأبنائهم إرثًا يتَّكِئون عليه من بعدهم، فما الذي لدى فقيرةٍ مثلي كي تتركه لصغيرها من بعدِها سوى جثتها لأنها لا تمتلك حتى مالًا لشراء قبر؟!

بدأت أنظر إلى عينها التي تبوح بالدموع، فيما هي تكمل:

- أنتَ تعمل في الجيش يا بني، فقُلْ لي بربك، هل ستحمون ابني من الفقر والجوع والمرض؟ هل ستحمونه أم إننا لسنا جزءًا من الوطن؟!

خرجتُ عن سكوتي وتألمت وقلت:

- الوطنُ هو الشيء الذي يجب أن يُضحِّي من أجله الجميع عدا كبار الدولة، الوطنُ هو كبار الدولة فقط. أنتم لسْتُم الوطن، الفقراء ليسوا الوطن. أنتم لستم الوطن، بل أنتم كباشُ الأزمات، أنتم كل من ماتَ لأجل شيءٍ مجهولٍ يُسمَّى الوطن، أنتم من أنسَوْكُم ماذا يكون الوطن، أنتم الوطن الذي يُضحِّي من أجلهم!

انحنيت وأمسكت من الأرض حفنةَ تُراب، ثم أكملت:

- هذا الترابُ رزقكم الوحيد هنا، موتوا من أجله، وكُلوا منه حتى تنتهي الحرب.

- حربُنا مع ماذا؟

- حربنا مع اللا شيء، نحن صُنَّاع العدوِّ ومُحاربوه!

رأيت في عينها ملايين من المعذبين فوق الأرض، رأيتهم يسقطون واحدًا تلو الآخر مع كل دمعةٍ مُنفردةٍ من كمِّ دموعها، كَلِمِي طفحت منه الدماء، الوباء بين الشعوب صار أكبر من أن يكون مرضًا، إذ صار جهلًا، حتى الثورات يقيمونها بجهل، الشعوب كلها يخدعها البُرْص ببتر ذيله، فيلتهون به وينسون أن البُرْص صاحب الذيل لم يمت مُطلقًا، بل انتصر، لأن الحرب خُدعة!

❀❀❀

الكواكب تسجد من جديد.. الكواكب تسجد من جديد

هكذا كانت الكلمات النابعة من أصوات الحَضْرة، التي لم يكن يُعرَف عنها شيءٌ سوى أنها من أفواه المُتصَوفة. ما إن سمع هذا الصوت حتى جرى، تتباطأ الدنيا كلها من حوله، يجري أسرع فتغدو خطواته كأنها لا تقطع إلا قطعةً صغيرةً مثلما السلحفاة، تسرع وتسرع لكنها تظهر أبطأ مما تظن هي، بالنسبة إلى صيادها. لم يكن

يدري سبب جريه في هذا المكان الغريب المظلم، هو فقط يجري، يخرج زفيرًا، ثم يأخذ شهيقًا آخر ليدوم زفيره، رئته تكاد تنفجر من كثرة العَدْوِ والتنفس.

قطيع من آلاف الذئاب يتقدمون بفرائهم البُني وأنيابهم البارزة ومخالب أقدامهم التي تطأ الرمال، الذئاب تصعد إلى الجبل كأنها رأت فريسةً بعد مجاعة عام، قطيعٌ كامل من الذئاب يلهث ليصعد، يوقع بعضهم بعضًا في أثناء المسير من كثرة تدافعهم، وقع نصفهم قبل الوصول إلى القمة، البقية منهم يتقدمون، عُواؤهم قد التفَّ حول الجبل، وقع أغلبهم قبل الوصول إلى القمة، ومع ذلك يتبقى منهم كثير، جميعهم تعطرت أنوفهم برائحة دماء بشرية، إنه هو الوقت، إنه يحين الآن!

عواؤهم وأصوات ريحٍ عاصفةٍ وأصوات الحَضْرة:

الكواكب تسجد من جديد.. الكواكب تسجد من جديد
الكواكب تسجد من جديد.. الكواكب تسجد من جديد
القمر يسجد من جديد.. القمر يسجد من جديد
الشمس تسجد من جديد.. الشمس تسجد من جديد

كان لا يزال يصارع الأرض بخطواته، حتى توقف فجأة، فكأنما رأى حافة الكون، وجد نفسه على قمة جبل، فتوقف قبل أن يقع، لكنه فجأةً سمع أصوات المتصوفة حوله ترافقُ عواء الذئاب، ذئاب تكاد تغطي القمة. ارتعد جسمه وبدأ يأخذ خطوةً إلى الوراء، لكنه

تراجع خوفًا من الوقوع عن الحافة، فاقتربت الذئاب منه أكثر وهي تحني ظهرها وتستعد للانقضاض عليه، وإذا بصندوقٍ كبيرٍ طائرٍ في السماء، تسقط منه عِصِيٌّ ترتطم بالأرض فتتجمع وإذا بها تتحول إلى حيَّةٍ كبيرةٍ ضخمةٍ يكاد يصل طولها إلى أربعين مترًا، فتكت بالذئاب حتى انتهت منهم ثم وقعت وارتدَّت إلى عِصِي من جديد، فنظر إلى كل هذا وكادت عيناه تخرجان من مكانيهما، حتى سمع صوت الحَضْرة مرةً أخرى ولكن من خلفه، فوجد أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر بازغين أمامه في السماء، كانوا كلهم يصطفُّون ويقتربون أكثر إلى الأرض، حتى أحس أنه يكاد يلمس أحدهم بمدِّ ذراعه، ثم أمطرت السماء بغتة، وبغير إدراكٍ لما حوله وجد السماء تمطر دماء ثم أشلاء ذئاب، وبقية الكواكب تقترب، حتى اصطدمت بالأرض وانفجرت مدمرةً كل شيءٍ بما فيه هو، وتفتَّتَت الأرض إثر الاصطدام وارتدَّت إلى أصلها فصارت رمادًا منثورًا في الكون، عادت لا شيء.

❀❀❀

شعرتُ أن شيئًا يحرك جُزئي العلوي، فاستيقظتُ هَلِعًا وأنا أبلع ما تبقى من أنفاسي، وأتذكر ذلك الكابوس الذي يخلع الروح من الجسد، لا أزال أشعر أنني فيه، لا أزال أشعر بكل ذرَّات جسدي تقشعر. وفي أثناء قيامي عن الأرض التي كانت مُفترَشةً بلحافٍ خفيفٍ مهترئٍ ووسادة، وجدت الوسادة تهتز، شيءٌ ما يتحرك

تحتها، فركلتها بقدمي لأُبعدها، فوجدت القميص، ثم وضعت كفي على وجهي لبُرهةٍ تذكُّر.

أردت لقلبي أن يطمئن وأن يعود إلى مهده، فقررت أن أفتح هاتفي الذي كنت قد أغلقته، وأدخلت شريحةً جديدةً فيه لأجري اتصالًا بـ«سبأ»، فأجابت مع أول جرس:

- عبد العزيز، قُل إنه أنت!

فأردفت:

- ومن غيري؟!

- كنتُ على يقينٍ أن اللّٰه لن يُفقِدني إياك، الوقت الذي غبتَ فيه كنتُ أُصارِع اللحظات كأنها الموت، كنت أحتضرُ بالوقت.

- أنا لست قاتلًا يا عزيزتي، لا أريد أن أثبت لأحدٍ هذا غيرك.

- وإن كان العالم بأسره يا عزيزي لا يصدقك، فسأظل أنا أصدقُك وأومن بك.

تظل كلماتها سهامًا تُطيِّب قلبي، حتى وإن تساقطت من هاتفٍ بائسٍ يَفصِل بيني وبينها، محادثة واحدة معها تكافئ سلام الدنيا.

شعرت هي بسكوتي، فتابعت بنبرة خوفٍ وقالت:

- أخاف من لحظة وقوف الزمن التي سأفقدُك فيها.

الحنين يجعلُ كل شيءٍ ناقصًا لنقص وجود أحدهم، يجعل الألوان أكثر بُهتانًا، يجعل الأمور أدنى من ملل المُعتاد، يجعلك تفقد شغفك بالأشياء، وتصبح مجرد بهلوانٍ يبتسم لمجرد أنه عليه أن يبتسِم.

كأي بشر انتابني الحنينُ والاحتياج، فقلت لها على مكاني، ولم يكن من المفترض أن أخبر أحدًا، لكنها ليست أحدًا. أخبرتها وأضفت:

- أنتظرك لأني لم أعد أطيق الانتظار من دونك!

❀❀❀

هذا وقت ضعف، هذا وقت حاجتي إليها، الشيء النقي الذي تبقى للإنسان بعد أن هبط إلى الدنيا هو الحُب.

أتى الليل، فأتت هي، خرجت لأصطحبها لأنني لا أأْتِمنُ لصوصًا على عقيق، سرتُ وأنا أتمتم مع نفسي ما لن أستطيع قوله أمامها، حادثتُ نفسي كأنني أحادثها على الرغم من أنني لم أصل إليها بعد، وقلت:

- عيناكِ بين السماء تزهوان كلَيلةٍ يبزغُ فيها القمر، وبهاءُ وجنتيك آنسْتُه مثل الشفق، سَلي قلبكِ كيف باع الثلج في الشتاء بين دواخلي وازدهر. قلبي جافٌّ في صيفِ الحياة ينتظرك مثل انتظار فيض المطر، وعيناي المُبكِرَتان لكل صباح قد تابَتا، وما عدت أنام، بل صرتُ أحب السهر!

انتابني البُكم فجأة، نعم لقد رأيتها مرةً أخرى، أسرعت خطواتي ورُحْت لكي أضمها إلى ضلوعي لتُخبرها كم اشتقتُ إليها، وقبل اقترابي منها أبَتْ وقالت:

- أنا أحوج الناس إلى هذا العناق، أردته منذ سنين، لكني إلى أن أنولَك في حلال اللّٰه، سأظل أحرمُ نفسي منه.

واجهتُ عينيها، شعرت أنني أمام روحٍ طاهرةٍ سقطت من بين أبناء الملائكة، فقلت:

- الاشتياق أعمى، قد يجعل المرء يفعل ما يندم عليه، أنا أعتذر!

- لا عليك، فأنا أشعر بعماك وتلعثمك، وأحب كل هذا، أحبك جملةً وتفصيلًا.

- ألا تكفي تلك الأقدار لأتزوجك؟!

- سأنتظرك حتى يملَّ الانتظار مني فيموت وألقاك، أو حتى أموت.

انقلبت ملامح وجهي واضطرب قلبي خوفًا، وقلت:

- عجَّل اللّٰه موتي وجعله قبلك!

تألَّمَتْ وأردفَت:

- أتخاف على نفسك من شعورِ فقداني، ولا تخاف عليَّ وأنا أُسلَب الروح وأنا على قيد الحياة؟!

- إذًا، فلتفنَ الأرض والعوالم بنا مرةً واحدة، ولتُقبَض أرواحنا في لحظةٍ واحدةٍ كي نصعد إلى السماء وقبضة كُلٍّ منا تحتضن قبضة الآخر.

هي تستحق كثيرًا من التضحية، تستحق أن يموت العالم أولًا ليُفسِح الطريق لروحها كي تصعد سُلَّم السماء.

كنت أخبرها دائمًا أنني سيئ، لتُخبرني أنني الأفضل.

كنت أخبرها أنني ضعيف، لتخبرني أنني الأقوى.

كنت أخبرها أنني وحيد، لتُخبرني أنني معها.

هناك أشخاص يستحقون كل شيء، يستحقون حتى أن تفقد ذاتك رويدًا رويدًا كلما اقتربت منهم. وهناك أشخاص يستحقون موتك، يجعلونك إذا قابلت الموت لأجلهم تبتسم وتغادر الحياة لتنتظرهم.

مصدر قوتك دائمًا ما يكون هو ذاته نقطة ضعفك، لأنه إذا ذهبَ ذهبتْ قوتك وظهر ضعفك للجميع جليًّا.

عندما أخسر شيئًا، أتذكر أنني ربحت قلبها، إن كانت الدنيا كلها ضدي، فأنا أكثر الناس حظًّا بوجودِها، وأنها معي.

❀❀❀

استفقتُ لنفسي وبدأت أبحث عن براءتي، تذكرتُ أمرًا مهمًّا كان قد اتخذ لنفسه مُتَّخذَ النسيان معي، الفلاشة التي أعطاني إياها مَن هرَّبني، هي معي ولكن اللاب توب الخاص بي لم أحضره، وبالطبع لن أجد هنا ما يشبهه، فاضطررتُ أن اتصل بـ«سليم» لكي يحضره لي، وحين اتصلت فوجئ بي، فأخبرته أنني أريد مقابلته في أحد مقاهي مدينة غمرة، وأن يأتي لي بلاب توب أونس به ذاتي، فوافق وما مضت إلا ساعة وأتى. دخل إلى المقهى الذي كنت أنتظره فيه، دخل بزيِّه المدني وجسمه الذي يشبه عود القصب الأبيض، فجلس وهو يتصببُ عرقًا، بعد أن عانقني وقبل رأسي، ثم قال وهو يعطيني الجهاز:

- ها هو طلبك، كنت قلقًا عليك يا زعيم.

فزمَمْتُ شفتيَّ وقلت:

- أنا لست عبد الناصر لأخسر، ولا ماعزًا لأتخاذل، أنا لا أدخل معركةً إلا لأكسبها، فلا تنعتني بلقب الزعيم هذا، قد أخبرتك أكثر من مرة.

فضحك كثيرًا، وألحقها بقول:

- حبيبي أنت، أنا أمزح معك! ولكني أرى فيك زعيمًا قادمًا.

- قلت لك، أنا أكبر من أن أكون زعيمًا.

فبادلني النظر وقال:

- أنتَ على حق.

- أخبرني، كيف حالك أنتَ وعصمت؟

- أنا لم أكن بخير قبل أن أراك، لكن عصمت بأفضل حال.

فتعجبت:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أن عصمت بات يمتلك نشوةً غير طبيعية منذ ما حدث لك، حتى...

- حتى ماذا، انطِق!

- حسنًا، أنا لم أكن أريد أن أخبرك، لكني سأخبرك وليقع ما هو كائن.

- قلت لك انطِق.

- حتى إنني أخبرت عصمت أنك اتصلت، وأنني سأقابلك، فسألني عن المكان وظننت أنه سيأتي، لكني بعدما أجبته ابتسمَ ابتسامةً غريبة، وقال إنه لن يستطيع المجيء معي لأن لديه عملًا.

- يا إلهي!

- يا أخي، لا تظُن به هكذا، فمن المؤكد أنه ابتسم لعودتك.

- عصمت...

وقع عليَّ الكلام كما لو كان بُرجًا من خمسة عشر دورًا، كل دورٍ بعامٍ مما قضيته مع «عصمت»، وبعد ذلك يكون هو خلف كل هذا! من أين أتت تلك الصاعقة؟! من أي سماءٍ أتت لتُطيح بي هكذا؟! ثم ماذا فعلت أنا له؟! لقد كان يمثلُ لي كثيرًا، كان لي أخًا، أيكون «قابيل» ليقتلني هكذا بخيانته؟! كم أود الموت الآن!

كان «سليم» يتابع حديثي كأنه قرأ ما في خاطري، وأراد أن يمحوه من صدمته:

- خائن! صحيح! لقد خفت من ذلك أيضًا، لكن لا! يستحيل هذا، إن فيه من الدنيا كل الطيبة!

قُمت من مكاني مُسرعًا وأخذت الجهاز، كنت أشعر أنني أخذت صفعةً أقوى بكثير مما أعطاني إياها «سامي العدل». شعر «سليم» بي فسأل:

- أسترحل؟! أنا لم أشبع منك بعد يا أخي!

لم أرُدْ من كثرة ذهولي، فعرض عليَّ أن يوصلني فقلت:

- إن كنتُ فقدته، فأنا لم أفقد بعد قدميَّ لأرحل بهما بعيدًا.

فتركني وودعني، لأنه يعرفني جيدًا ويعرف أنني لا أغير قراري.

خرجت من المقهى، ومع أول خطوتين، وجدت سيارة شرطة تقف توًّا على ناصية الشارع لأنه ضيق، فلم أنتظر حتى أراهم وهم ينزلون ليركضوا خلفي بالسلاح، بل ركضت أنا في الشوارع الضيقة،

واضطررتُ أن آخذ مسلكًا يؤدي إلى مكانٍ آخر غير مخبئي حتى لا يتتبعوني. ظللتُ هكذا أركض دون توقف وأنا أشعر بأنهم خلفي، كان كلما زاد خوفي زاد معدل الأدرينالين لدي، الذي كلما زاد ركضت أسرع، حتى وجدت شخصًا على باب بيت يشاور لي بخنصره فدخلت البيت عنده، لأن هذه هي العلامة التي أستدل بها إلى الجماعة التي قالت لي أمي عنهم في وصيتها إنهم سيساعدونني وسيكونون موجودين دائمًا بخنصرِهم. صعدتُ إلى البيت فشاور لي لأصعد إلى سطحه دون أن يتكلم، فصعدت وبِتُّ هناك.

الخوف ينقذك أحيانًا من الوقوع، كن خائفًا دائمًا لكن لا تكن جبانًا.

ما يقتلني الآن أنني خُذِلت من أحدٍ أحبه.

❀❀❀

أنفاسِي حارَّة متضاربة، عينايَ منفرجتان عن وسعهما، الألم يُحيط جوانبي كلها، لكني قررت أن أصمد حتى لا أهلك، شغَّلت اللاب توب وأدخلت فيه الفلاشة، حركت أناملي لأفتح ذلك الفيديو الذي وجدته، فاكتشفت أنه فيديو قتل «سامي العدل»! بدأ الفيديو، شخصٌ ما دخل، يرتدي قناعًا يشبه وجوه السحالي وله لسان يتدلى منه، يحمل مسدسًا كاتمًا للصوت في يده اليسرى. تحرك فشعر به اللواء، ولما التفت نحوه وجد رصاصةً قد استقرت في منتصف

دماغه، ثم تحرك القاتل نحو الكاميرا وكسرها ثم اختفى كل شيء. تلك الهيئة وهذا الجسد لم يكن شيءٌ منهما غريبًا عليّ، بل بدا كلٌّ منهما مألوفًا، كان لهما مكانٌ وتصويرٌ في ذاكرتي، لكن مَن صاحب هذا الفيديو؟ أيكون «عصمت»؟!

حاولت إبطاء الفيديو المُصوَّر ثم تيقنت من شيء.. إنه هو!

❀❀❀

**Beethoven: Für Elise**

الثلاثاء هذا اليوم، صرتُ أتراقص فيه على أنغام بيتهوفن وحدي تمامًا، أرفعُ يدي إلى السماء وأحركها كأنني زهرة أو راقصُ باليه، الغريب في الأمر أنني لم أعد مرِنًا كالسابق، أظن أن تلك القبور من خلفي ورائحة أمواتها هو ما جعل مرونتي أقل.

الثلاثاء أبغض أيام الأسبوع، ولا تسألني لماذا لأنك أيضًا لا تعرف السبب، ربما يكون يوم خلق الشيطان، ولربما يكون يوم ولادتك، فأنت نحس العالم كله، وأكبر دليل على هذا أنك تقرأ هذا الكتاب الآن.

دعني منك ومن أمراضك النفسية التي تحب أن ينعتك الجميع بها ويؤكد عليها حتى تقولَ «تنمَّر العالم عليَّ» وتصبح كئيبًا مثل

الجميع، نحن في زمن السعيد المميز، لا زمن من يحتسي القهوةَ في الصباح على أنغام «فيروز» ويحتسي حزنَه بعد منتصف الليل؛ المُستكئِبون هم المنتشرون، همُ العاديون، الشخص السعيد مميزٌ لأنك لن تجده.

في أثناء رقصي، وجدت «قاسم» ابن الحاجة «مؤنسة» ينظر إليَّ ويتعجب بابتسامة طفولية، فقلت:

- حسنًا، أظن أنه عليَّ التوقف الآن.

توقفت، ولكن كانت الموسيقى لا تزال قيد التشغيل، فوجدته يحاول محاكاة حركاتي، شبك يديه نحو السماء وبدأ محاولة الرقص، فتحركتُ بجانبه وبدأت أعيد الرقص وأنا مبتسمٌ له، فيضحك. هذا الرقص وسط القبور كان ممتعًا، بخاصة أنه كان في بهو منزل الحاجة «مؤنسة»، التي ظهرت للتو وقالت وأنا أتوقف خجلًا من نفسي:

- تملكني القلق عليك يا ولدي، حمدًا لله على سلامتِك.

فقلت:

- وجودكِ مربوح، لا داعي إلى القلق مطلقًا، قُدِّر لي أن أكون وأفعل أشياء كثيرة لم أفعلها قبل أن أموت.

كانت عيناها مثبتتين على جهازي الذي تخرج منه الموسيقى، ففهمت مرادها وأطفأته، فقالت:

- لم أرَ قاسم سعيدًا هكذا منذ مدة! يبدو أنه أحبك يا عبد العزيز، وأحب أيضًا موسيقاك الغريبة تلك، لكن يجب أن تتذكر أننا في حضرة الراحلين ضيوف، وهم لهم حُرمَتهم.

تفهَّمت الأمر وقدرت شعورها.

الأموات لا يشربون الشاي الذي تُعدِّه الحاجة، فهم ليسوا ماديين، يوجد كثير من مُدمِني الشاي، ومن المؤكد أن منهم مَن هو ميتٌ الآن وينظر إليَّ وأنا أرتشف من الكوب رشفةً ساخنةً تلوَ الأخرى ويحسدني، بل ويريد أن يتلبَّسني لمجرد أن يعود مرةً أخرى ويتذوق رشفة.

كنت قد أجريت مكالمةً من خط الهاتف الجديد وتحدثت إلى «فيروز» لتُحضر لي بعض الأشياء، وما إن حان الليل، حتى أتت نحوي سيدة ترتدي رداءً أسودَ لا يظهر منه إلا عيناها، ذلك الرداء الذي يُسمَّى النقاب، والذي تُعرَف به الراهبات من المسلمات، أقبلت نحوي وأنا أنتظر تحت أحد الكباري، فأزاحت عن وجهها ما أخفاه ثم ضمتني إليها.

إنها «فيروز»، يمكنك أن تميزها من عطرها ونرجسيتها في فرط جمالها، ومن القُبلة التي وضعتها على فمي الآن، كنت قد بدأت أذوب

في شهوتي، لكني توقفت وأزحتها دون أن يُخيَّل إليَّ رؤية «يعقوب»، كما حدث لـ«يوسف»، أنا لم أحتَج سوى إلى مساعدة ذاكرتي التي ذكَّرتني بوجود أعين للمارة.

- اشتقت إليك، كم زاد هُراء العالم في غيابك!

كانت نبرتها تبوح بأننا نحتاج إلى سفينة لتحملنا إلى البر.

- لديكِ كثير.

- بالفعل لدي كثير، ولكن من دونك يصبح ذلك الكثير شحيحًا قليلًا فقيرًا.

عسَّلَتني بهذا الكلام، آخِ منها ومن طبقها الدسم الذي أريد تذوقه!

كدت أن أغفل ذلك الأمر الذي أردتُها فيه، فقلت:

- الآن أريد جسد فيروز في مهمة، ولكن ليس لي.

- إذًا فلِمَن؟

- أريدكِ أن...

-٤-

الأشخاص الأكثر حظًّا وذكاءً هم الذين تراجعوا عن خوض تجربة الحياة، وماتوا في أرحام أمهاتهم!

الباب لم يكن موصدًا، تسللتُ واقتربتُ من غرفة النوم، سمعت أصواتًا تنمُّ عن علاقة جنسية خلف باب الغرفة، فتوقفت وارتبكت، شعرت للحظة أن الزمن يتوقف لينظر إليَّ ويراني مرتعدًا من رؤية شيءٍ مضى فيه، شيءٍ جعلني أذرف الدموع وأتصلب بصلبان ما لم يمُر بي. بدأت أستعيد زلة الزمان لي، نظرت إلى السكين الكبيرة في يدي ورأيت يوم قتلتُ أبي، همَّت يداي بالاهتزاز، فوقعت السكين مني على السجادة، حاولت أن أميل بكتفي لآتي بها ولكنني لم أستطع إمساكها، حتى رأت عيني شيئًا يتدلى من حقيبةٍ أسفل أحد الكراسي، فشعرت برغبة في الاقتراب لأرى ما هو، وإذا به لسانٌ بلاستيكيٌّ لقناعٍ يشبه وجوه السحالي، إنه هو ذاته! القناع الذي ارتداه الشخص الذي أتيت إلى هنا خصيصًى له.

ارتديت القناع وكان يلائمني، شعرت برغبة تتجدد داخلي للانتقام، فأمسكت سكيني، وصار الماضي المترائي أمامي ما هو إلا مشهد مُكدَّر مُعتَكِر تنأى عن رؤيته العين، تقدمتُ نحو الباب ثم فتحته، وحركت رأسي لـ«فيروز» أن تخرج، فأخذت ملابسها وخرجت. كان ثملًا بجسمه النحيل العاري على السرير، قال وهو عارٍ بحقيقته دون ملابسه:

- من أنتَ؟

فقلت:

- ألا يُذكِّرك هذا القناع أنَّ مالكه قاتل؟! أنا الآن مالكه.

ثم أمسكت السكين أفقيًّا بالفم المحفور بالقناع، وأطلقت يدي في الفراغ بشكل المخالب، كأنني بالفعل تلك السحلية الضاحكة الشريرة المحفور شكلها على القناع، ثم أطلقتُ ضحكات «سانتا كلوز» وتابعت:

- بصري الآن حديد مثلما يقول كتابكم، أنا الآن أراك بحقيقتك الحقيرة وأحاسبك قبل يوم الحساب بثوانٍ، أنا نعشُك الذي سيمضي بك إلى مثواك الأخير!

بدأ هو يتراجع في سريره وعيناه ثابتتان على سكيني في ذهولِ أُضحِية، ثم قال:

- من؟ من؟!

فأزلت عني غطائي وقلت:

- مفاجأة!

ليُردِف:

- عبد العزيز!

ثم ألحق قائلًا:

- سأخبرك بكل شيء، أنا كنت مغصوبًا على أمري، لست أنا من أراد الإيقاع بك، فمن أراد هو أكبر مني بكثير، إنه أيمن القيعي، هو الذي يريد التخلص منك وأمرني أن أشعل الكيد بينك وبين سامي العدل، لذلك بعدها أخبرتك أن ترحل حتى يتضح للجميع أنك لن تقدر على صفعة العدل لك، وبعدما رحلت أخبرني القيعي أن أقتل العدل لتُلفَّق لك ويتخلص منك، فارتديت هذا القناع وقتلته، أنا العبد المأمور.

زاد غضبي وقلت:

- أيمن القيعي! الوزير نفسه يريد التخلص مني! حتى إن أراد، فيمكنه عزلي دون كل هذا.

فرد:

- لا أعلم، ولكن ما علمته وحسسته فيه هو أنه يهابك بشكلٍ لم أرَ له مثيلًا.

ثم تابع:

- لكن، كيف عرفت أنني أنا من قتلت العدل؟!

- سأخبرك كم كُنتَ غبيًّا.

كدت أن أخبره قبل أن أعذبه، ولكني لاحظت يده تتسلل إلى كومودٍ لتحضر شيئًا، فانهلتُ بالسكين على رقبته، حتى تركَ رأسه السرير وجسده وهبط إلى مستواه، هبط إلى الأرض. ثم أكملت:

- والآن دعني أخبرك كم كُنتَ غبيًّا حتى لحظتك الأخيرة.

❀❀❀

**قبل هذا بأربعة أيام..**

الوقت: الواحدة بعد منتصف الليل.

المكان: سطح أحد منازل مدينة غمرة.

تلك الهيئة وهذا الجسد لم يكن شيءٌ منهما غريبًا عليّ، بل بدت أشكالهما مألوفة، كان لهما مكانٌ وتصويرٌ في ذاكرتي، لكن مَن صاحب هذا الفيديو؟ أيكون عصمت؟!

حاولت إبطاء الفيديو المُصوَّر ثم تيقنت من شيء.. إنه هو!

«سليم»!

ذلك الوغد النحيل الأعسر، هو من دبر وفعل كل هذا!

لم تختلف الأمور، اكتشفت كل الحقائق الكاذبة، اكتشفت أن من الواجب أن أكون آخرَ غيري، من الواجب أن أكون شخصًا يُلائم

وحدتي. ليتني فقدت ثقتي من البداية، حتى لا أفقدكم، حتى لا يخونني صدقُ صحبتكم هكذا!

❀❀❀

- اتصلت وقتها بفيروز، اضطررتُ إلى استخدام ضعفك وشهوتك حتى أقتلك، مثلما قتلتَ حبي لك يا صديقي. لكن أتعلم، أنا شخص رحيم ويمتلك من الرأفة ما يسع الدنيا بأسرها، فأنا لم أعذبك قبل أن تموت، أنا فقط أعطيتكَ حريتك، تخيل! بعد أن تخونني هكذا أعطيكَ أنا بكل طيبةٍ الموتَ وحريةَ الروح، بل أيضًا أخلصك من هذا الجسد العفن المكتظ برائحة المني، ولم أكتفِ بهذا، فقبل أن أحررك من قيد الجسد، منحتك ليلةً عظيمةً مع أقرب جسدٍ أنثى لي، هل أعجبتك «فيروز»؟ إنها تجيد عملها، أليس صحيحًا؟ كانت فاتنة لك. رد عليَّ وإلا سأعذب جسدك الحزين هذا أمامك! آخٍ صحيح، نسيت أنك تركته ومُت، ولم يعُد يهمك هذا الجسد في شيء، سأهتم أنا بأمرك.

وبعدها فتحت ذراعيَّ على مصراعيهما وقلت:

- أنا خلصت روحك من جسدك وأعطيتك حريتك، صدقت النبوءة؛ أنا حقًّا المُخلِّص!

❀❀❀

كنتُ قد استأجرت إحدى السيارات المسروقة خصيصًى لحمل جثته، ونظفت وجمعت كل الأشياء التي تعبر عن أنه قُتِل، وأخذت كل هذا واتجهت به إلى مكانٍ خاوٍ كالصحراء، وحينما توقفت لدفنه، نظرت إلى رأسه المفصول وقلت:

- لا، لن أقف بك كل أربع أذرع، فلتلتهمك الأرواح الشريرة.

فحفرت له حفرة رديئة الطول وألقيته فيها، هو وكل ما يخصه، ثم ردمته بالتراب بيديَّ النقيتين، ثم شعرت أن مثانتي قد امتلأت، فنظرت بعيني حولي ولم أجد بالطبع مكانًا يلائم تبولي غير مدفنه، وبكل بساطة تبولت عليه، وبعدما فرغت أتيت بزجاجة الماء التي كانت في السيارة ووضعتها على الأرض، أخذتها مرة أخرى وتطهرت، ثم ركبت السيارة.

على الرغم من أن هذا القبر نجسٌ كصاحبه، فقد ذكرني بقبر أمي، الذي صار مكانًا للجثث الأخرى بعدما أتت الجماعة السوداء وأخذوني لأشاهدهم وهم ينتشلون جثتها، حتى يكون جسدها مُكرَّمًا بالدفن قرب الأرض المقدسة.

ذات مرة، أخبرني العم «إسحاق» أن أجسادنا نحن اليهود إن دُفِنت بعد الموت تحت أرضٍ غير الأرض المقدسة في إسرائيل، فإنها تزحف تحت الأرض حتى تصل لترقد بسلامٍ هناك. لكن إن

كانت ستزحف وحدها، فلِمَ أخذوا جثمان أمي؟! لِمَ لمْ يتركوها تزحف وتصل وحدها من تحت الأرض؟!

أشعر دائمًا بوجود أساطير بين مُسلَّماتنا، وتحريفٍ كبيرٍ من وشم الزمان، لذلك أومن بما يرجحه عقلي، وعقلي لا يرجح شيئًا لم يره. كل الذي أعلمه أنه يوجد أشخاصٌ وصلوا إلى الغرفة الخالقيَّة، منهم من قال إن الغرفة صفرية، ومنهم من قال واحد واثنان وثلاثة.

علاقتي بالدين كالذي تشبث بقشة لأنه لم يجد غيرها وهو يقع من الهاوية، نحن في الأساس محتاجون إلى أن نصدق حتى لا نسقط.

أظن أنك أيضًا إن علمت أنك في مكانٍ مُقفِر ومظلم لا يوجد فيه أحد ولا تعرف فيه شيئًا عن اللحظة القادمة، فستصنع بدماغك أشخاصًا، بل وكونًا بأسره لتتيقن أنك لست وحدك، ستصنع من يخبرك أن القادم أفضل.

قد أكون وحدي في هذا المكان المظلم، وقد تكون أنتَ الذي وحدك وأنا محضُ خيالٍ من خيالاتك. لكن صدقني، أنا بالذات لن أقدر أن أقول لك إن القادم أفضل، لأني لا أعلم إن كان يوجد قادمٌ من الأساس. فعلى الرغم من أنني رجلٌ بالغ، لا أعلم أنتبع نحنُ اللّٰه كبشرٍ أم لا، وإن كنا نتبعه، ففي أي دينٍ بالتحديد نتبعه، أم في أي دينٍ يتبعنا اللّٰه!

مَن يريد الصعود وسلمه مصنوعٌ من الهواء،

فسيسقط بكل تأكيد !

## الأول من أكتوبر..

مكان شديد الظُّلمة، إنه الكهف ذاته، الظلام ذاته، وبؤرة النار الوحيدة ذاتها، الشخص البدين نفسُه يتقدم، المشعوذ النجس نفسُه جالسًا، انعكس ضوء النيران على وجه البدين ورأسه الضخم القصير ذي الشارب والعينين الضيقتين والبشرة البيضاء الدهنية والفم الواسع والأنف العريض والأسنان التي يتراقص عليها دخان السجائر ويعطي له طابعًا بشعًا من الأصفر، إنه يمتلك من الصحراء الصلع، هو رجل ستيني لكن ليس كعامة الشعب.

أخذ أنفاسه وقال:

- يا قنصوة، يا قنصوة، عبد العزيز هارب، وسليم اختفى.

فرد عليه بتلقائية:

- سليم قد اقتلع غباؤه رأسَه، لقد قُتِل.

زاد خفقان قلب البدين وقال:

- أنا... أنا الوزير! أنا... أنا أيمن القيعي، يأتي رَعاعة من الرَّعاع هكذا ويشغل كل تفكيري! لمَ لا أقتله وأتخلص منه؟!

انطلقت ضحكة المشعوذ «قنصوة» مرة واحدة، ثم سكت ليرد قائلًا:

- خنصره يا سيدي الوزير، التي لاح بها في رؤياك، يدل أنه ليس وحده، وأنه يمتلك شيئًا لا يقوى عليه كَيْدُ بشر.

نظر الوزير إلى الأرض كأنه يسأل نفسه: «من أين؟!»، هو لم يعتد يومًا ذلك الخوف الذي يقذف شظيةً في عينه كل ليلة ليجعله مغتربًا عن النوم.

سأله بنبرة مضطربة:

- وما العمل يا قنصوة؟

ابتسم قنصوة» وأردف:

- ما لا يقدر عليه بشر، سيقدرُ عليه.

عادت البسمة الشريرة إلى «أيمن القيعي» وهو يقول:

- يقدر عليه الجان!

ليرمي «قنصوة» ملحَه في ناره ويصحح له القول:

- لا، بل سيدهم.

بدأت نظرة الاستعلاء والجبروت تعود إليه، فقال:

- أجل، بكل تأكيد.

ليرد «قنصوة»:

- ولكن كما تعلم، هم طمَّاعون جدًّا ومعروفهم باهظ.

- كم يعني؟ خمسة آلاف جنيه؟ عشرة آلاف جنيه؟ لا يهم.

- لا، بل مئة ألف جنيه.

فقام الوزير من مكانه معترضًا على المبلغ وقال:

- من الواضح أن عُزلتك تلاعبت بعقلك يا قنصوة، أنسيت من أكون؟!

ليرد بنبرة استغلالٍ وثقة:

- الأمر ليس كما تظن، المئة ألف ستضمن لك الحفاظ على منصبك، بل والحفاظ على حياتك أيضًا.

أطلق زفيره وألحق:

- داهية أنت يا قنصوة، تجيد إقناعي! لك ما شئت، ولكن تأكد أنك إن لم تخلصني منه، فسأقتلك أنا وأعطي جيفتك لإخوتك من الجن.

نظر إلى ناره وقال:

- ليس أمامك أي خيار إلا أن تثق بي، ثق بي يا سيدي، ثق بي لتعيش.

❀❀❀

## ٢ أكتوبر..

الوقت: دبر العشاء.

المكان: مكان شديد الظُّلمة.

«قنصوة» كان واقفًا بجسمه النحيل وشكله المتسخ ولحيته التي نمَتْ في كل أركان وجهه، بدأ يرسم خاتمًا غريبًا على عضده الأيمن يحتوي في بعض أجزائه الرقمين (١١٦) و(٧٥٢)، بالإضافة إلى بعض الرسومات الأخرى، ثم قال نداءه السفلي:

- أقسمتُ عليك يا زنقط، بحق من بسط الثرى فوق الزلال ودحا الأرض، ربي فوق الماء وأثبتها بأوتاد ثقال، إلا ما حضرت حضرتي وأجبت دعوتي، وحققت رغبتي بحق قيحرلا ويليحرلا وييرغملا ودبع وينياليكلا والوحا والعجل والساعة.

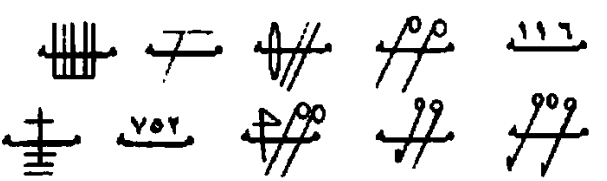


❀❀❀

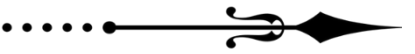

## ٩ أكتوبر..

أشعر بالتيه هذه الأيام، أشعر أن ليس لي برّ، لذلك فأنا أحتاج إليك مرةً أخرى، ومرةً أخرى أنتِ لستِ هنا. ذلك ما قلتُه لـ«سبأ» قبل منتصف الليل بدقائق، وأنهيت المكالمة باطمئنان أنها ستأتي غدًا.

كعادتي في مثل هذا الوقت كنت أتوسط القبور، جالسًا بينها، أنظر نظرة إبراهيم إلى السماء وأتحسس شيئًا غريبًا فيّ، ذلك القميص الذي أورطني في كل ما سبق وأنجدني منه، أنا أعرف من أكون ومن سأكون، ومع ذلك مضطرب، يعرف الليل اضطرابي جيدًا، فهو الوحيد الذي يكون معي حينما أراه.

كان الجو هادئًا وصافيًا كعادته، حتى بدأ يتعكر، بدأت أسمع صوت جرسٍ قريب، الريح بدت أنها تغير مسارها وتهرب من شيء، صوت صفير بدأ يملأ المكان، شقَّاتُ أنفاسي صارت فزعًا، شيءٌ ما في الجوار، شيءٌ لا أعرفه ولم أعهده. لحظات، لحظات وبدأت القبور تسْوَدّ، ظلالٌ كثيرةٌ بدأت تقترب، ظلالٌ صغيرةٌ تكبَر وتملأ المكان بأنين صوتٍ متوجع، صارت الظلال تشكل محيطًا أسودَ من حولي، أصوات صراخٍ ترافق كل هذا أيضًا، ثم حيَّةٌ كبيرة، حيَّةٌ كبيرةٌ ظهرت، طولها يقارب خمسة عشر مترًا، بدأت أتراجع إلى الخلف من أثر ما رأيت، تتلاحق أنفاسي وسكن صوتي.

حاولت الحية الاقتراب مني وسط القبور التي شعرتُ أن صراخ أمواتها يكاد يثقب طبلة أذني، هم أيضًا ارتعبوا مثلما أنا أتراجع خوفًا من تلك الروح الشريرة. القبور شرعت في نزف الدماء، دماءٌ تصل إلى قدميَّ ثم تتحول إلى برك سوداء تخرج منها أيادٍ تحاول الإمساك بي وجذبي، لكن فجأةً أنار قميصي بكلماتٍ تحته، أنار بشكلٍ لم أرَه من قبل، أنارت كلماته في شكل صفوفٍ بعضها فوق بعض، وأصبح مشهد التراجُع هو مشهد تؤديه الحيَّة وليس أنا، كأنني قد أخفتُها. بدأ نور قميصي في الازدياد، فانقلبت الحيَّة في التراب وصارت تتحرك فيه، كأنها تموت، ظلت هكذا حتى ماتت، واختفت!

أخذ الضوء الذي أنار به قميصي يتلاشى، فخلعته وأنعمتُ تأمله، إنه قميص يوسف! القميص الذي صُنِع في الجنة ونزل من السماء السابعة، ثم لبسه «إبراهيم» حتى تكون النار بردًا وسلامًا عليه، ثم اختار الملك «جبريل» «يعقوب» ليرثَه ويعطيه لابنه «يوسف»، الذي كان فائق الجمال إلى الدرجة التي تحتاج إلى أن يحفظ الله نبيه بقميصه في كل وقت.

الآن، أنت تعرف حقيقتي!

❀❀❀

## الوصية..

أنا وريث القميص المُنتظَر، أنا حفيد «موسى بن ميمون» حافظ القميص إلى أوان ولادتي. هكذا كتبت أمي في وصيتها، ماتت أمي وتركت وصيتها تقول:

«تركت لك إرثًا لم يرثه أحد من بعد موت يوسف، ولن يرثه أحدٌ بعدك، سيحفظك في كل وقتٍ وحين، ستكون يا صغيري كبيرًا يومًا ما من دوني، إن رسالتي لك وما أوصيك به، أن لا تترك القميص، لأنك نبوءتُه المنتظرة، أنتَ المُمهِّد الكبير للخلاص، أنت حفيد موسى بن ميمون المنتظَر، أنتَ من سيُعيد إلى بني إسرائيل مجدَهم، ونيلَهم قبل فراتِهم، أنتَ من سيعيد ترميم معبد جدك لتكون حاخامه الكبير، أنتَ الفرعون الصالح الذي سيُطيح بكل ما تركه الفرعون الفاسد. وقبل أن تفعل هذا، فلا تتزوج حتى لا يكون لك نسل. أنا الآن مُت، لكنك من الآن لم تعد وحدك، ستجد بقية العائلة وبقية الجماعة الطيبين حاضرين بخنصرهم، وستجد أيضًا العم إسحاق ينتظرك دائمًا في المعبد ليُرشدك. أنا الآن مُت، ومن الآن أنتَ لم تعد وحدك يا صغيري».

كل شيءٍ أعرفه إما تعلمته من العم «إسحاق»، أو ساعدني في الوصول إليه بقية أفراد الجماعة، إنهم قريبون دائمًا، إنهم في كل مكان.

علمت أيضًا أن إحدى علامات مولدي أن تلدني أمي بعدما كانت عاقرًا، وأن يكون الزوج مسلمًا صِرْميًّا تاركًا دينه كأبي.

كنت قد دخلت إلى البهو، وتدَثَّرت مرتجفًا من هول ما رأيت.

❀❀❀

هلَّت الشمس بأنوارها وأنا جالس أنتظر خسوفها عن «سبأ»، هي كآخر ورد الزمان، لا تزال تفوح بعطرها لي خصيصًى، لا تزال تعوضني عن خذلان العالم لي، هي ذلك الشخص الذي أحتاج إليه لأكون بخير دائمًا، بمجرد رؤيتها يختفي عني أثر الضغط العصبي، بل وأشعر أن بإمكاني فعل كل شيء.

لا أحد فيكم يمتلك شخصًا يعطيه كل ما فقده من دون مُقابِل، لا أحد فيكم يمتلك مَن يحتويه رغم عِظَم خطئه، لا أحد فيكم يمتلك «سبأ»، لأنكم أقل بكثير من هذا، بل أنا ذاتي أقل من أن أستحقها، أنا محظوظ فقط، ولا حظ للأغبياء!

هذه المرة، كنت قد سبقتها إلى مكانٍ يُعِد القهوة بلطف في ضواحي الجيزة، وعلى الرغم من فرحتي بانتظارها، كنت مضطربًا،

لا أقوى على المسير، متحطم العقيدة والهوية، فاقدًا الراحة، مؤرقًا كثيرًا. جئتها كعادتي، كما الطفل الذي ينتظر أن تخبره أمه أنه بخير، طيلة حياتي كنت أجد في وجودها دواءً لكل أسقامي وندوبي، في حضرتها أجد مُحتضَر الخوف والحيرة، أنبتت الأرض خيرًا مكان أثرها وهي تخطو الخطوة تلو الأخرى نحوي، رأيتها فانفلق وجهي البائس وأخرج من كَسْرِه ابتسامةً لها كأنني أحسنُ أهل الأرض حالًا وأسعدهم. استغربت نفسي وقلت: «ألست أنتَ من كنت تحمل الدنيا فوق رأسك منذ قليل؟!»، ثم ازدادت ابتسامتي وهي تجلس وتقول:

- السلام عليكم.

فنظرت إلى عينيها وقلت مُشرِقًا ابتسامتي:

- منكِ وعليكِ السلام.

ردت بصوت أرق من قطرات الندى:

- اشتقتُ...

- إليّ؟

- بل إلى كل شيء، ما دمت أنتَ كلها!

لم أبلغ ردًّا يلائمها، فتابعَتْ:

- أبخيرٍ أنت؟

- كلَّا، لم أكن قبل رؤيتك.

وضعت يدها الصغيرة بعفوية على وجهها، ضحكَتْ ثم قالت:

- أنا لن أكون بجانبك إلى الأبد، ماذا عساك تفعل حينما لا أكون هنا؟!

- أموت يا سبأ، جُرحي ينزف دائمًا، ماذا عساه يفعل حينما لا تكون ضمادته هنا؟!

استندتُ إلى المنضدة وبدأت أنظر إلى الأرض، شعرت بأوزاري تُثقِل أحمالَها عليّ، تألم ظهري من الدهر حتى كاد ينكسر، لولاها لكان انكسر من موت أمي. لاحظت هي اغترابي، فوجدتُ يدين صغيرتين تمسحان لي دموعي كأنهما رقاقتان من القطن، فكل لحظات انكساري وضعفي كانت هي اليد ذاتها التي تمتد لي لأقوم بثبات، كل لحظات ضعفي كانت هي قوتي. قالت لي بحنو:

- لا تبكِ يا عزيزي، أنتَ تعلم جيدًا أنني أحب مشاركتك، إن كنت تريد البكاء وحدك فأنا لن أتخلى عنك، سأبكي معك دائمًا في كل الأوقات، حتى وإن كنتُ في أوجِ سعادتي.

دبَّت الحياة في أرضٍ بور، قلت مُستنشِقًا نسيم ربيع وجودها:

- لا أعلم ما مشكلة شخصٍ أنتِ في حياته!

نظرت بحزن وقالت:

- ولكنني أعلم.

- إذًا فما هي؟!

- أنتَ دائم الاحتياج إليّ، ما بالُك بخالقي، أنت فقط لا تعرف أنك بحاجةٍ إلى الله دائمًا أيضًا.

هي لا تعرف أسبابي، على الرغم أنها أكثر مَن يعرفني، لا تعرف أن «عبد العزيز» ليس عبدًا لذلك العزيز الذي تظنه، ربما لا تعرف أنني في الأساس عزيزٌ لصِرْم لكن ينقصه وقت، أوشكت الحقيقة على التساقط مني وأنا أقول:

- ولكنني...

- لا يوجد لكن في مثل هذا الأمر، جرِّب الاقتراب من الله، جرّب أن تسجد ودَعْ همك يسقط في تلك الحالة الفريدة التي يكون فيها التذلل أمرًا عظيمًا، ادْعُ الله ولو لمرة أن تتذكره.

أخذت شهيقًا وأردفت:

- أريد أن أعترف لك بشيءٍ يا سبأ، لكن عديني أن لا تتركيني بعدها.

- أعدُك.

- لكنني شخصٌ سيئ في أقصى حالاته، أمتأكدةٌ أنتِ من أنك لن ترحلي؟!

- مهما بلغ سوؤك، ما دمتُ قد أحببتكَ بصدقٍ فلن أرحل، حتى لو رأيت فيك عيوبًا لا يتحملها جميع البشر، فأنا سأكون إلى جانبك عوضًا عن كل البشر، سأصلحك كُلما كسرَكَ خطؤك وعلتك.

أطلقت زفيري المغلول بالهم واعترفت:

- أنا يهودي الأصل، أنا وأمي وأسرتي لم نكن مُسلمين في غير البطاقة.

- أنت لم تكُن مسلمًا يومًا، نمَّت أفعالك عنك لي، كما أخبرَتْني أنكَ لم تكن يهوديًّا أيضًا.

هي تعرفني دائمًا وتفهمني من أقل عددٍ ممكنٍ من الكلمات، تعلم أن «أنا بخير» تعني أنني لست بخير، تعلم أن «الأمور كلها بخير» تعني أنني لم أعد أقدر على مواصلة الوقوف لمواجهة العالم. هي تعلم دائمًا كل شيءٍ حتى من دون كلام، يكفي أن تفضحني نظراتي، وأن يحادثها قلبي بنبضاتِه المُتسارِعة.

أخبرتها:

- أنا لم أكن مؤمنًا يومًا بوجود اللّٰه.

- ومن قال إن اللّٰه موجود؟!

- ماذا؟!

- اللّٰه الواجد، واجد الموجود، اللّٰه هو الواحد الذي لن تجد إليه سبيلًا يقوى عليه عقلك، بل إن السبيل إليه هو قلبك؛ حين يؤمن قلبك فسيُصبِح عقلك هو أكثر المصدقين بالله.

- أحاول التصديق.

- لن تصدق ما دمت على الطريق الخطأ، صحِّح مسارك، وابْنِ سلمًا من اليقين الصلب، لتصل إلى اللّٰه.

- وماذا أفعل؟

- فقط ثق بي، وكن على يقين وردد معي.

- حسنًا.

- أشهدُ...

- أشهدُ أنْ لا إله إلا اللّٰه وأنَّ محمدًا رسول اللّٰه، أنا أحفظ ذلك جيدًا من ترديد الأذان.

أضاءت مرة أخرى وقالت بسعادة:

- أتعرف كيف تصلي؟

- لا.

- لا بأس، سأعلمك الآن.

هذه اللحظة كانت ذات راحةٍ وشعورٍ غريب، كأنك نفضتَ التراب المتراكم منذ زمنٍ عن الآلة الموسيقية المفضلة لك ووجدتها تعمل.

إنني جيد الآن، تذوقت ما افتقدت منذ زمن، أنا لم أكن حتى بتلك السعادة في حياة أمي، يبدو أن هناك تغيرًا كبيرًا سيحدث لي في المدة القادمة، يبدو أنني سأكون بخير.

إنني الآن أولدُ من جديد.

❀❀❀

**١١ أكتوبر..**

الماء يطهرني، يغسل كل حواشيَّ، فأشعر بقشعريرة تنفض مساءات الأيام، أخذت قليلًا من الماء وصدمت به وجهي مرةً تلو المرةِ تلو المرة، كم هو شعور مُريح! كأنما الوضوء اغتسالٌ للروح قبل الجسد. أنهيت وضوئي ثم قمتُ أصلي، وفرشت سجادة الصلاة التي أهدتني إياها «سبأ»، فرأتني الحاجة «مؤنسة» فابتسمت وقالت:

- أول مرة تفعلها يا بني، أنتَ نقي!

رددتُ إليها الابتسامة، ثم بدأت وقلت: «اللّٰه أكبر»، قرأت الفاتحة ثم الإخلاص، ثم ركعت وأنا أشعر بشعورٍ من الراحة غريبٍ عليّ،

لم أتذوقه طيلة حياتي، فقلت وأنا راكع: «سبحان الله العظيم»، ثم استقمت فوجدت نفسي أقول: «سمِعَ الله لمن حمده»، فشعرت بالله قربي، بل ويريدُ سماعي، فسجدتُ ثم بكيت وتذكرت أن «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، فبكيت أكثر وأنا أقول ما عندي وأشعر أنه ينصتُ لي أنا بالذات من فوق السماء السابعة، فقلت: «يا قريب اسمعني، يا غفَّار اغفر لي، يا مفرج فرج همي، يا مُجيب أجبني»، ومن بعدها وأنا لا أُفوِّت موعدَ لقاءٍ مع ربي.

الله حقيقة، حينما تعرفها القلوب، تُبصِرها العقول.

كم هو الاحتياج نعمة حينما يكون إلى الله!

## ـ٥ـ

نسمات الفجر دائمًا تكون جميلة، لأنها رأت في الظلام الحالك

شمسًا قادمة، فتشرق من جديد !

- يا عزيزي، يا عبد العزيز. يا عزيزي، يا عبد العزيز.

كان ذلك صوت «سبأ»، وقت العصر، استيقظت من نومي على الأرض وسط البهو وأجبتها:

- نعم.

فقالت:

- براءتك يا عبد العزيز! ظهرت براءتك لهم.

هززت رأسي بيدي محاولًا الاستفاقة وإدراك ما تقول، فتحدثتُ من جديد:

- ماذا تقولين؟! أقصد، أهذا حقيقي؟!

- نعم، عصمت أرسل زوجته لتُبشرني الآن.

قلت غير مدرك ما تقوله:

- كيف؟!

فأردفَتْ:

- عصمت لم يكن صامتًا طيلة هذا الوقت، بل كان مؤمنًا ببراءتك، ظل يبحث ويبحث عن أي دليل، حتى وجد محلًّا له كاميرات مراقبة على ناصية الشارع الذي يسكن فيه اللواء سامي العدل، فدفع لصاحب المحل مبلغًا من المال حتى يُفرِغ

له الكاميرات في الوقت الذي قُتِل فيه اللواء، وأمست هنا المفاجأة، إذ وجد سليم يدخل الشارع في الوقت نفسه ومعه حقيبة، وبعدها بربع ساعة كان سليم خارجًا من الشارع، وبالمقارنة مع كاميرات التصوير الخاصة بمراقبة العمارة التي تقطن فيها، أُثبِتَ أنك لم تتحرك من مكانك وقت حدوث الجريمة، وحينما ذهبوا ليقبضوا على سليم الآن لم يجدوه، فاعتبروه هاربًا.

الخبر جعل كل جزءٍ مني يبتسم مرةً أخرى، تنقلب حياتي إلى الأفضل في الوقت التي ظننت فيه أنها انتهت.

انهلتُ على الأرض ساجدًا حامدًا شاكرًا، ثم عدت لأحادثها:

- يا فرحة المريخ! أنا.. أنا أشعر كأنما نما لي جناحان صعدتُ بهما إلى السماء ورأيت بهما الجنة، أنا سعيدٌ في أقصى درجاتي، أحبُّكِ يا سبأ في اللّه، أحبُّكِ إلى نهاية الدنيا، أحبُّكِ دائمًا.. أحبُّك.

- وأنا أحبك في اللّه يا عبد العزيز، إن عينيَّ تفيضان دموعًا من فرحتي الآن!

أردت أن أحتضنها، أردت أن أقربها بالشكل الكافي لتشعر بنبضاتي المُتسارِعة وهي تتفرَّد ويُسابِق بعضها بعضًا لحُبِّها، الفرحة لا تسعني، في الليلة التي أختم فيها القرآن لأول مرةٍ في حياتي أستيقظ على هذا الفرج!

مَن ذلك الأبله الذي كان يقول إنه لا يوجد اللّٰه؟! إذًا من أكرمني؟ الصُّدفة؟! ظللت أضحك وأحمد ربي، وتبادلني «سبأ» ضحكاتي عبر الهاتف.

هي الوحيدة التي آمنت بي وقت ضعفي، أحبَّت أطلالي وجعلتها مساجدَ أحمدُ منها اللّٰهَ على نعمةِ وجودها.

ساعتان فقط نمت فيهما بعد الانتهاء من الظهر، لأستيقظ على خبر انتظرته كثيرًا، وكنت قد فقدت أمل مجيئه، حتى مَنَّ اللّٰه عليَّ به.

قلتُ لها:

- يا سبأ، لم أكن سليمان، لكنكِ كنتِ بحِكمَتِه وعطائه، وكنتِ لي.

قالت بطيبة الدنيا، وما رأيت من الدنيا طيِّبًا إلا فيها:

- أنا لم أفعل شيئًا، أنتَ من فعلت كل هذا، أنتَ من اقتربت من اللّٰه، كنتُ فقط سببًا لأمرٍ كائن وإن لم أكن.

رددت:

- إنكِ أفضل الأسباب التي قد يحصل عليها عبدٌ ضالٌّ مثلي ليهتدي.

قالت بتعفُّف:

- شكرًا لك.

- الشكر لله، والدعاء لكِ أن لا تزولي، أنا أُقدِّر ما في يدي، ما في يدي لا يحصل عليه إلا المحظوظون، كان من الممكن أن يهديني الله عن طريق غيرك، لكن ما كنت لأسعد بأحدٍ كمثل فرحتي بوجودك.

غرَّدت ضحكتها قائلة:

- وفِّر كل حديثك هذا إلى وقت مجيئك، ارتدِ ثيابك وكن في أفضل حال، وتعالَ لنقابل عصمت.

ظللنا نتغازل ونسينا الرجل الذي فعل كل هذا الخير!

ضحكت أنا الآخر قائلًا:

- آخ، عصمت! يا لندالتي، هو من فعل كل هذا ونسيته.

ضحكنا معًا كثيرًا ثم أغلقنا الهاتف.

سيتبقَّى في النهاية بعد سنينَ طويلةٍ واحدٌ من أصدقائك، يُخبِرك أنه الجميع.

يا فرحة المريخ بك يا «عصمت»! أصلكَ وطيبتك عوَّضاني عن خيانة البعض.

صرتُ أضحك بصوتٍ مسموع، حتى جاء إليَّ «قاسم» بطيبته وبساطته المعهودة مُبتسمًا لي، فقبلته وأمسكت يديه وقبلتهما، دخلت الحاجة «مؤنسة» وهي تضحك لسعادتي، فقبلتُ رأسها ويديها هي الأخرى. كنت في قمة سعادتي، بل وقمة سعادة البشر أجمعين!

❀❀❀

ارتديت ملابسي، تجهزت بأفضل طريقة، وذهبت إلى منطقة وسط البلد لأقابل «عصمت»، ذهبت إلى المكان الذي حُدِّد للمقابلة، ووجدت كلًّا من «سبأ» وزوجة «عصمت» و«عصمت» ذاته، وبمجرد أن رآني «عصمت» هَمَّ وقام ليعانقني عناقَ من عادَ من الموت إلى الحياة. ذلك الأسمر الجميل كنت أحسُّ طيبته وأعرفها جيدًا، على الرغم من أننا رجالٌ ثلاثينيون، ذرفنا الدموع وسط المارة في الشارع، ثم عدتُ لأسمع صوت «عصمت» الحلو وهو يقول:

- أنتَ بخيرٍ أخيرًا يا صديقي! كنت أثق ببراءتك وأعلم أنك لست هكذا، كنت مُطَّلِعًا على حقيقتك حتى النهاية، ولم تُخيِّب ظني.

فمسحت قطرات دموعي وأجبت:

- أوحشتني يا صديق العمر!

- وأنتَ أيضًا!

قلت له:

- لم أكن أعلم أنك ستفعل كل هذا من أجلي.

- هذا واجبي، نحن أبناء الجيش ورجاله، الجيش الصِّرْمي لا ينجب خونة.

أطلقت أنفاسي وأردفت:

- وماذا عن سليم؟ أليس من أبناء هذا الجيش؟!

- المحصول الجيد لا يكون سيِّئًا لوجود نبتةٍ خبيثة، ثم إننا سنظل نقتلع أي نبتةٍ خبيثةٍ تظهر ولن نمَلّ.

بلدنا ذُكِر في القرآن، وجيش بلدنا قال عنه سيدي «مُحمَّد» ﷺ إنه خير أجناد الأرض، لذا امتلكت ظنًّا أن هذا الجيش سيكون له قيامة وسيسود يومًا ما، ربما سيسُود حينما أسودُ أنا، لن أنسى أو أتخلى، أنا عزيز صِرْم، وأمتلك قميصًا من السماء.

- أين ذهبت؟!

كان هذا صوت «عصمت»، الذي انتشلني من نوبة غفلتي وتفكيري، وجدتهم كلهم يضحكون عليَّ فشاركتهم ضحكاتهم.

ثم قرر «عصمت» أن يعزمنا على طعامٍ وفيرٍ في مطعم يعد اللحوم ويشويها، كنت أبتلع ما بي من جوع، بل وحرمانٍ طويلٍ من اللحم، فقد كنت أشارك الحاجة «مؤنسة» وابنها فولهما وعدسهما، بل صارت لي عزوةٌ من المعارف في ذلك المكان الصعب الفقير.

حينما وُضِع الطعام، كانت «سبأ» تأكل طعامها وهي تنظر إليَّ وأنا مُنقَضٌّ بشراسةٍ على الطاولة، الأمر كان جميلًا لأنها كانت تضحك. مدت يدها لتأخذ قطعةً من أمامي، وقالت بمرح:

- تعجبني تلك القطعة بالذات.

اكتفت بقطعةٍ واحدةٍ مني، وحينما انتهى طعامي، وجدتها تغمزني قائلة:

- لقد شبعت، خذ هذا الطعام الباقي.

فأخذته وأنهيته وهم يضحكون، وهي تضحك، لم يكن يشغلني سوى ضحكاتها الملائكية، أقسم أن ضحكاتها يصعبُ وصفها! لا أقدر على سردها لك، كيف أسردها وأنا لا أفهم سرَّها وأتوه وأُسرَق مني لمجرد أن تبدأ هي في الضحك؟! يا اللّٰه على حُسنها! أنا في حضرتها ثَمِل، لا أعرف سواها! ضحكاتها معزوفة، إن تمكن من عزفها «عمر خيرت» ذاته لصار أفضل من «بيتهوفن»!

أنهيت طعامي من نصف ساعة، وطيلة النصف ساعة لم أدرك سوى أن كل هذا حدث في لحظةِ نظرٍ إليها، تلك اللحظة التي قد تمتد حتى تقوم الساعة!

كان ذلك اليوم هو أسعد أيام حياتي، أو اليوم الوحيد السعيد فيها.

❀❀❀

عش كل لحظاتك السعيدة كأنها الأخيرة،

لأنها قد تكون الأخيرة فعلاً!

بعد أسبوع من العودة إلى العمل، والعودة أيضًا إلى زيِّي الرسمي، بات الجميع ملاحظًا الفرق الكبير بين «عبد العزيز» قبل و«عبد العزيز» بعد، الكل أصبح يقول: «قد جعلته خطيبته شيخًا!»، لأني أصبحت أؤمُّ المُصلِّين في المكان، ومن كثرة أحاديثهم شعرت أن مسألة اعتباري فردًا من «الإخوان المسلمين» ما هي إلا مسألة يومين. هم أيضًا باتوا يشعرونني أنني مُلتحٍ لأني شيخ، على الرغم من أنني هكذا منذ أخذت منصبي هذا الذي لا يُلزِمني بحلاقة لحيتي.

وأذكرك مرة أخرى أنني لن أخبرك بمنصبي، أو حتى كيف باستطاعتي أن أُطلِق لحيةً قصيرةً مُهندَمة، لا تسأل كثيرًا شخصًا مُضطرًّا إلى الكذب، فأنت من المستحيل أن تتخيلني بصورتي الحقيقية، أنتَ أعجز من هذا.

نحن جيش من الشعب، وحينما ننحاز إليه وإلى أصلنا، نكون أفضل من مئةٍ من الحُكَّام.

على كل حال، أنا أمتلك قميصَ يوسف، لكنني لست النبيَّ «يوسف»، لست ذا وحي، بل أنا أصيب وأخطئ في كثيرٍ من الأمور، وأضطر إلى قول بعض الأشياء الكاذبة في النص رغمًا عني، حتى تجد كاتب هذا العمل حيًّا يرزق ليُوقِّع لك.

حالي الآن وسعادتي لن ترضي كثيرين.

أخاف من كل ما لا أتوقعه، لأنهُ يحدث.

❀❀❀

**٢٨ أكتوبر..**

في ليلة هابها القمر، وامتلأت سماؤها بظلام قلوب البشر، كانت الحسناء «سبأ» قد أنهت عملها ونزلت من معمل التحاليل، وسط برد الشتاء الذي أثلج معطفها، وبالها الذي اشتاقَ وانشغل بـ«عبد العزيز»، الذي ستقابله أخيرًا بعد انتهاء الأسبوع في جمعة جديدة، جمعة تعرفُ كليهما جيدًا، تجمع بين شتاتهما المتفرق، جمعة تصبرها مرة أخرى بزواجهما الذي تأخر أعوامًا. خطواتها الصغيرة كانت تعطي للأرض بريقًا ساحرًا، تفكر في شراء طعام، فتجد نفسها انتُشِلَت في سيارة سوداء، مع أناسٍ ذوي أَرْدِيةٍ سوداء، ظلَّت تحاول الصراخ دون جدوى، كأنما السيارة ذهبت إلى الصحراء، أو إلى عالمٍ آخر لا يوجد فيه بشر.

الحياة بارعةٌ في سلْبِكَ كلَّ الأشياء التي تحتاج إليها!

❀❀❀

## ٢٩ أكتوبر..

إنها الجمعة، اليوم الذي ألمس فيه من وجوه الناس أنني أسعد مَن فيهم والوحيد الذي ينتظره، ربما لأن ليس هناك غيري يمتلك «سبأ».

لم تتصل هذه المرة، هاتفها كان مغلقًا بالشكل الذي أخافني ووتَّرني عليها، ومع ذلك قررت أن أذهب إلى المكان الذي نتقابلُ فيه، جلست ما يقرب ساعةً ونصف ولم تأتِ، كدت أهم بالذهاب إلى بيتها، إلا أنها دخلت فجأةً إلى المكان، فاطمأن قلبي.

ابتسمَتْ دون أن تُلقي سلامها المُعتاد، أمسكتْ يدي لأقوم، دون أن تتحدث حتى، فقمتُ معها، لم أهتم إلى أين فالمهم أنني أصبحت معها، قلبي مطمئن، لم أدرك إلى أين نحن دالِفان، ظللنا نمشي كثيرًا حتى صعدنا إحدى العمارات، فخرجتُ عن صمتي قائلًا:

- إلى أين يا سبأ؟

- مفاجأة، لن أخبرك بها إلا حينما نصل، هيا اصعد معي.

صعدنا، وصلنا إلى الطابق الثالث، ففتحت باب الشقة بمفتاحٍ معها ودخلنا، ثم قالت فاتحةً ذراعيها:

- ما رأيك؟!

- ما هذه؟

- شقتنا.

تعجبت، لأنني أمتلك شقةً تلائمنا:

- ولكن الشقة التي أمتلكها جيدة!

فأردفت بطفولية:

- أنا أفضل هذه لأنها قرب النيل.

نظرتُ إلى الأرض وقلت:

- ولكنك تعلمين أنني لن أقدر على شرائها.

- لا أعلم، تصرف بأي طريقة.

بدأ وجهي يعبس، تعجبت من طريقتها، كأنني أتعرَّفُها لأول مرة، نظرت هي إليَّ وشعرت بي، ولأول مرة عانقتني، ضمَّت كل أضلعها إلى جسدي، أشعرتني بكمِّ الانتماءِ الكبير، وأنها جزءٌ من جسدي خارجي.

ضممتها إليَّ وعقدتُ يدي خلف ظهرها، كلما مرت لحظةٌ ازدادت ضمتي، ضمَّةً بعد ضمَّة، تمحو كل الكسور، ضمَّةً تجعلني مرفوعًا إلى السماء. بدأتُ أتحسس قربها، بدأتْ تضع عليَّ قبلاتها، فصرتُ أُبادِلها تلك القبلات بحرارة. انغمس كلٌّ منا في فمِ الآخر، وفي لحظة بدأتُ

أخلع ملابسي، وحينما اقتربتْ من إزارها لتخلعه عن نفسها، دفعتُها، استفقت لنفسي وأنا أعدل ملابسي، وقلت في حدة:

- ماذا نفعل؟!

فقالت وهي ترتدُّ إلى حيائها وتبدي من عينيها الدموع:

- أنا لم أفعل شيئًا، لا أدري ماذا حدث!

فرجعت خطوة إلى الخلف، وقلت:

- أنا السبب في كل هذا، أنا آسف! أعدكِ أن الأمر لن يتكرر مرة أخرى، حتى تصبحي حلالًا لي.

انهمرت الدموع من عينيها ثم خرجتْ من الباب، خذلتُها خذلان الشخص الوحيد الذي لم يخذلني في العالم، لم أعد مناسبًا لأكثر شخصٍ لاءمني، غرائزي وشهواتي كان يجب عليَّ تكبيلها، كان يجب أن أثبت لها كم أنا مناسب، أنني في الأصل شخص جيد، وأنني لأجلها فقط أحاول التخلص من هذا السوء الذي وضعه العالم داخلي، مَن غيرها يُكمِلني، أنا لا أعرف كيف أعتذر، بل لمن أعتذر، هل لله الذي خُنْت دينه، أم لها لأنني خنت عهدي بحفظها، أم لنفسي لأني خسرتها؟!

كان يبدو أن الخسارة إلى الأبد، ولم أكن أريد للزمن سوى أن يعود بابتسامتها إليّ، لم أكن أريد سوى فرصة أخرى بعد المليون لأثبت لها أنني مناسب.

أنا لم أفقدها فقط، بل فقدت قوتي وثقتي معها.

❀❀❀

**مكان شديد الظُّلمة..**

يدخل عليه الوزير في غضبه، ويقول:

- مئة ألف جنيه لم تكفِ لقتل الصعلوك عبد العزيز هذا؟!

- اسمعني يا سيدي...

- أسمع لك؟ أنا قادم لأقتلك من الأساس.

- أنتَ مضطر إلى سماعي، إنْ قتلتني فسيقتلك عبد العزيز، روحك مرهونة في يدي يا سيدي، أنا فرصتك الأخيرة في الدنيا.

أعاد «أيمن القيعي» مسدسه إلى غمده ومُستقَرِّه لكي يستمع إليه، وقال بلهجةٍ مسلوبة الصبر:

- ماذا عندك لتقوله؟

رد عليه المشعوذ «قنصوة» بمَكْر:

- إنه صعب يا سيدي، كاد يقتل عظيمًا من عظماء الجن، فما بالك بما يمكنه فعله مع البشر؟!

وضع الوزير يده على رقبته، مستوحشًا ذلك الموت القريب وقال:

- وما العمل؟ من المؤكد أن هناك عمل.

- العمل عظيم يا سيدي، إن امتلك هو قوة أبيه أدم، فسآتي له بمن هزم آدم.

اتسعت عينَي الوزير وهو يقول:

- أيُعقَل، أن يكون هو؟!

- هو بعينه، لكن الأمر سيأخذ وقتًا كبيرًا.

أعجبه الكلام وأحس بانتهاء عُقدَته:

- بالتأكيد، بالتأكيد. سأغدق عليك المال يا قنصوة إن أتيتني بِعبد العزيز جُثةً هامدة.

طمع «قنصوة»، شعر أنه لأول مرةٍ يمتلك طموحًا يستحق التعبُّد للشيطان ذاته.

بدت الأمور مستقرةً في هذا المكان، لكن هذا الاستقرار لم يكن دائمًا، بل هدوء ما قبل العاصفة، عاصفة لن تُطيح إلا بـ«عبد العزيز».

❀❀❀

**0 نوفمبر..**

جمعةٌ من دونها أحالت حياتي من الازدهار إلى الجفاف، تركت كل آمالي كما تركتني السعادة، قدري من الحياة قد أخذته وانتهى، ما عدت أصلي، ما عاد لي وجهٌ أقابل به أحدًا، حتى اللّٰه!

بعض الأشخاص صوتهم وحده يكون سماعه نعمة، حتى الأصم يمكنه تميز تلك النعمة.

من ينظر إلى وجهي لن يصدق أنني من يومٍ واحدٍ فقط، عُيِّنت رئيسًا للمبنى الذي أعمل فيه، واستحوذت على مكان اللواء «سامي العدل». كل الأشياء من دون لونها تصبح باهتة، هي كانت لونَ كل الأشياء. أتمنى أن أفقد منصبي الجديد وتعود هي وتسامحني، فالحشيش لم يعد كافيًا للنسيان! أنا ملكٌ فقيرٌ من دونها، أحكم رَعاعًا، نبضي يضخ الدم والدم يخرج إلى جسدي مسرعًا متمنيًا أن لا يعود.

أنا شخص لا يستحق الحياة للحظة، لِمَ تزيد السنون بعضها فوق بعض وأنا لا أستحق؟! لمَ لا تتخلص مني الدنيا وأصبح طيَّ النسيان كأي أحد؟! أنا أشبه السيجارة الطويلة التي تدخنها الحياة لتستمتع بها حتى تنفد منها، أنهتني الحياة وألقتني أرضًا وداست عليّ، ثم أشعلت غيري، ومع ذلك لا أزالُ حيًّا.

وحدهم الأشخاص الطيبون يتركون الحياة ويرحلون، أنا لم أكن طيبًا يومًا، لذا لا أظن أنني سأموت، بل أشعر أنني سأظل أعيش حتى فناء الدنيا، لأمُر بكل الكوارث وحدي، وأجمع بينها على حائط إنجازاتي، أنني مررت، أنني استمررت على الرغم من كل ما فيَّ وما بي، كنت هنا من أول الدنيا إلى آخر فنائها ولم يشعُر بي أحدٌ قط. كل الذين شعروا رحلوا؛ سبأ، أمي، وأبي! أين قبره هو الآخر؟ أين دفنته أمي؟!

يبدو أنني أحتاج إلى أن أبحث عنه، لقد كان أبي على الرغم من كل ما فعله، ثم إنني لا أختلف عنه كثيرًا فأنا أيضًا كنت أخون «سبأ» مع «فيروز»، إن كنت قد أنجبت أي ولد صغير، فبالتأكيد كان سيأخذ حقَّ أبي مني، ويجعل الدائرة تدور وتَدْمى رقبتي بسكينه.

لم يتبقَّ لي سوى راحتي «فيروز»، لم أتذوقها منذ مدة، تَانِك الفخذان التفاحيَّتان وبقية الجسد الذي إن كنتَ مُستذأبًا حقيقيًّا فلن تشبعَ منه.

❀❀❀

- أنا أعرفكِ جيدًا، وأعرف أنك الجسد المفضل لعبد العزيز، وللحقيقة، فإن اختياره رائع، رائع إلى درجة التي تُثيرني يا فيروز!

وقعت الكلمات على «فيروز» كما وقوع الصاعقة المميتة، فإن التي تقف أمامها بعد أن فتحت الباب، هي «سبأ»، التي دخلت فور فتحه. كانت تلك الفعلة غريبة، «فيروز» تعرف «سبأ» جيدًا من كلام «عبد العزيز» عنها، لكن مجيئها إلى هنا لأول مرة كان غريبًا، بخاصة أن من المفترض أن «سبأ» لا تعرف شيئًا عن «فيروز» أو حتى عن علاقتها بـ«عبد العزيز».

جلست «سبأ» ثم أشارت لـ«فيروز» وقالت:

- تعالي اجلسي بجانبي، يوجد مكان لتشاركيني هنا أيضًا على الكرسي.

جلست «فيروز» على الكرسي المجاور لها وهي ترتدي قميص نومٍ أسود يبرزُ مفاتنها، التي لم تتحرك عين «سبأ» عنها، أزاحت «سبأ» الحجاب عن شعرها، تاركةً إياه يحجب رقبتها، فأخرجت «فيروز» تعجبها قائلة:

- ما الذي أتى بكِ؟

فردَّت:

- أنا وعبد العزيز شخصٌ واحد، يمكنك أن تعتبريني هو.

- كيف؟!

- صدقيني لن أقصر، قد تكتشفين أنني أفضل منه أيضًا.

- ماذا تقولين؟!

- عبد العزيز أخذ مني قلبي، وأخذ منك جسدك، فلمَ لا؟ لمَ لا نجتمع؟

فقالت «فيروز» بامتعاض:

- أنا لا أفهمك يا سبأ!

- ما دمتِ تعرفينني، فأنت تفهمين قصدي وعرضي جيدًا.

قامت «سبأ» من مكانها، اقتربت من «فيروز» الجالسة على الكرسي وهي تشتمُّها وتضع وجهها مباشرةً أمامها، فقالت:

- الحياة تضطركِ إلى فعل أمور جديدة، بمجرد أن تعرفي أن القديمة لم تفلح، الرجال خائنون يا فاتنتي، لذا علينا نحن النساء أن يتزوج بعضنا بعضًا.

ثم انقضَّت عليها وافترست فمها، يدها بدأت تصل إلى أماكن قريبة، «فيروز» كانت تحاول المُقاوَمة، لكن دون جدوى فقوة «سبأ» كانت تحكمها بشكل لا يجعلها قادرة سوى على الاستسلام لتلك العلاقة المحرمة، ككل علاقاتها.

الانغماس في الأمر كان في أوج جديته، الحياة بطبيعتها لم تكُن مفهومةً يومًا، لا يمكنك أن تدرك أن العاهرة تُقاوِم كفرَ العفيفة، هذه الصورة لا يقوى على رسمها «فان جوخ» ذاته، الأمر لا يتحمله عقل

بشري، البشر بإمكانهم فعل أشياء يستحيي منها الجن والشياطين أنفسهم.

❀❀❀

في الليل، كنت وصلت إلى «فيروز»، طرقت بابها دون أن أخبرها قبلها، أردت أن أفاجئها. فتحت لي الباب، وبمجرد أن رأتني جلست على الأرض وظلت تبكي، فتعجبت، أغلقت الباب ثم نزلت في وضع القرفصاء، لم أرَ «فيروز» هكذا قط، هي لا تعرف سوى الضحك والمتعة والسعادة، آتي إليها لأتخلص من دموعي، فأجدها تبكي هي الأخرى!

سألتها:

- ما بك؟

فتنهدَت مراتٍ عديدةٍ وقالت إن «سبأ» أتت إلى هنا، بل وليس هذا فقط، اتَّهمَتْها أنها حاولت أن تمارس معها علاقة جنسية.

العاهرة خسرت لطَمَعِها بي، تريد الانفراد بي، والآن تأتي لكي تقول لي إن الأقصى نجس! إن «سبأ» التي لا تعرفها أتت لتفعل معها هذا!

صفعتُها تلقائيًّا أكثر من مرة، ثم توجهت إلى البابِ تاركًا إياها وقلت:

- طمعكِ أعماكِ وأنساكِ من تكونين يا عاهرة!

فردت وهي مشتعلة البكاء:

- أنا لم أكذب عليك يومًا، لا في الماضي ولا الآن، أنا فعلت كل الأفعال المحرمة، لأني لم أُرزَق بعائلةٍ أو بشيءٍ غير جمالي، كنت سأُوكَل يومًا ما كأي قطعةٍ لحمٍ مجانية، ولم يكن ليهتم لي أحد. ألا يجب أن تُسعَّر اللحمة وتطلب لنفسها ثمنًا كي تباع، أم تترك لتُؤكل من دون مال؟! أحينما تُسعَّر اللحمة تصبح في نظركم فاسدةً وعاهرة؟! أكان عليَّ أن أترك نفسي وجبةً مجانيةً للمجتمع، حتى ينهشني الجميع وأموت أنا جوعًا؟!

فنظرت إليها نظرةً أخيرةً ثم أغلقتُ الباب ورحلت، وأنا أسمع أنينها وبكاءها الشديد.

حزني زاد وأنا أفكر في كمِّ الأشخاص الذين أصبح عليَّ تمثيل وجودهم في حياتي، وتصديق قربهم.

كيف لي أن أبادل نفسي المشاعر؟! كيف أقنع ذاتي أن تلك المشاعر صادقة، وأنها ستبقى المشاعر نفسها إلى النهاية؟! بل كيف أنسى أنني من أبادلني تلك المشاعر ولا أحد غيري؟!

❀❀❀

في صباح يوم السبت، كانت «فيروز» قد قررت أن تتحرك، قررت أن تخبر أحدًا ما قريبًا من «عبد العزيز»، خوفًا على «عبد العزيز» ذاته مما رأت، فعلى الرغم من أنها عاهرة كل السياسيين والقادة، فقد كانت تحب «عبد العزيز» حبًّا يصل إلى منتهاه، فهي تعلم أنها لا تناسبه، وكانت تكتفي بجسده فقط، لأنها تحبه أرادت له السعادة وإن كانت مع غيرها، كانت تفرح كثيرًا بلمعة عينيه السعيدتين وهو يحكي لها في فراشها عن مدى حبه لـ«سبأ»، وعن كمٍّ نقاء «سبأ» التي تشعر أنها سقطت من الملائكة، لذلك هي لم تجد حُكمًا عقلانيًّا لما فعلته معها. لم تجد سوى «عصمت» لتخبره بما حدث، لتحاول شرح كيف أن تلك الحقيقة جعلتها تقلق بشأن «عبد العزيز». جعلت أحد معارفها يعطيها رقم «عصمت»، واتصلت به وأخبرته أنها تريده في أمر يخص «عبد العزيز»، وتريد أن تقابله دون معرفة الأخير، فوافق وقابلها في أحد المقاهي.

تحدثت إليه، أخبرته مَن تكون وطلبت منه أن يصدقها قبل أن تروي عليه ما حدث، فقال لها:

- أيٌّ ما كان الذي ستقولين، فسأحاول التحقق منه لأجل صديقي.

فأخبرته، لتجد على وجهه علامات ذهول متفرقة، فسألها:

- تريَّثي! إن ما تقولينه لا يصدقه عقل، أنا لم أرَ في حياتي فتاةً أشد حياءً من سبأ، أتريدينني أن أصدق هذا؟!

- لا، بل أريدك أن تتحقق بنفسك.

فانفعل قائلًا:

- كيف أتحقق من أمرٍ كهذا؟!

- سأخبرك كيف، لكن اهدأ رجاءً فالناس ينظرون إلينا.

- حسنًا هدأت، أخبريني كيف.

جففت توترها بالمنديل، وأجابت:

- حينما كانت تمارس تلك العلاقة معي رغمًا عني، حاولت الإفلات منها، ولكن قبضتها المحكمة عليَّ لم تكن قبضة فتاةٍ أبدًا، هذا هراء! أنا نمت مع كثيرٍ من الرجال، ولم أجد من أحدهم قبضةً كهذه، إنها كانت تقيدني تقريبًا، كأنها بقوة عشرة رجال، وكانت تحرك خنصرها نحوي، ولم تكفِني تلك الغرابة، كان يوجد شيءٌ آخر.

- وما هو؟

- حجابها لم تخلعه، هي فقط أزاحته عن شعرها، وكان ملفوفًا على رقبتها، وحين لمسته أبعدت يدي بقوة، وظهر لي شيءٌ صغيرٌ من تحت الحجاب، كأنه جُرح.

- ماذا؟!

- أنا عرفت أن لك زوجة، لمَ لا ترسلها إلى المنزل الذي تعيش فيه سبأ مع أهلها، لتحاول أن ترى وتتحقق؟ فإن رأت الجُرح أكون أنا صادقة، وأستحق تصديقي.

سلم أمره وقال:

- هو كذلك، سأرسل زوجتي، إذ تعرف كل منهما الأخرى.

فاتفقا وقال إنه سيتصل بها بمجرد أن يعرف من زوجته نتيجة زيارتها لـ«سبأ».

سمح الجميع لليوم أن يذهب، على الرغم من أنه ترك أفكارًا لا تريد أن تُمحَى، وحيرةً كبيرةً لا تجد لها إجابةً أو تفسيرًا، أو حتى فرضًا صغيرًا من الفرضيات التي تقبل الاحتمالات، الأمر كان معقدًا وأصعبَ من ذلك.

بعدها بيوم، وجدتْ «فيروز» اتصالاتٍ عديدةٍ من «عصمت»، فردت على أحدها، فوجدته يقول:

- الآن يا فيروز، الآن تعالي وقابليني في المقهى نفسه، بأسرع ما يمكن.

فأسرعت «فيروز» وارتدت ملابسها سريعًا، ثم نزلت واستقلت سيارتها وصولًا إلى هناك، وبالطبع لأنها تريد الوصول سريعًا، ازدحمت كل الطرق أمامها وتكدست كل السيارات بعضها خلف

بعض، كأن السيارات تقف طابورًا طويلًا للحصول على وقودٍ مجاني.

وصلت أخيرًا إلى المكان، ركنت سيارتها بصعوبةٍ ككل الإناث، ترجلت منها بكعبٍ عالٍ فكادت تقع وهي تسرع، حتى جلست أمامه، وهي تأخذ أنفاسها وتقول:

- ماذا حدث؟

فقال وعيناه متسعتان عن آخرهما:

- زوجتي فاطمة، ذهبت أمس لتفعل ما اتفقنا عليه، وحينما وصلت إلى بيت سبأ، فوجئت بأهلها حزانى، يقولون إنها اختُطِفَت منذ عشرة أيام، ولم يظهر لها أثر، ولم تصل الشرطة إلى المختطفين.

اتسعت عيناها هي الأخرى وهي تقول:

- ولكن كيف؟! ومن كان معي إذًا؟!

- هناك أمر كبير، وأظن أنه من الآن يجب أن يعي عبد العزيز المصيبة غير المفهومة التي تحدث.

اتصلوا بي، وأخبرني «عصمت» أنه من الضروري أن أذهب إليهما الآن في مكان وجودهما. ذهبت وعلمت كل شيء، وأصابتني صدمة من شمس الحقيقة حتى كادت تُطيح بي أرضًا.

هي لم تعد إلى منزلها منذ الثامن والعشرين من أكتوبر.

كلام «فيروز» و«عصمت» يعبث في دماغي الصغير، لم أعد أحتمل تلك البراكين التي لا تخمد، أنا لا أجد لشيءٍ منطقًا أو حسابًا، ما جعلني أصدق «فيروز» هذه المرة هو أنني تذكرت يوم راودتني «سبأ» عن نفسي وخالفت شِيَمها، وجعلتني أشكُّ في نفسي أنا، أنني أنا من حاول أن يراودها عن ذاتها وليس هي، أنا الآن أشعر أن هذه ليست «سبأ»، ليست «سبأ» نهائيًّا؛ لم يكن ذلك هو الكِنُّ الذي شعرت فيه بأمانٍ أكثر مما شعرت بالخوف من العالم.

كانت «فيروز» تعيد كلامها، غير مصدقةٍ أو واعيةٍ ما تقوله، وفي أثناء ما كانت تعيد الكلام مع نفسها، توقفتُ عند كلمةٍ واحدة، تحسستُ فهمها، توقفت عند كلمة «بخِنصرِها».

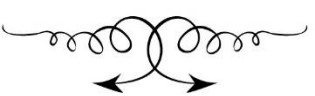

## -٦-

كُن ذكيًا، حينما تعطيك الدنيا قدرًا كبيرًا من السعادة، فانتحر واهرب، قبل أن تُقسِّط ثمنها بالربا أضعافًا إلى آخر ما تبقى من حياتك!

إن كنت ستموت في كل الأحوال، فاختر أنتَ موتتك الأفضل.

أخذتُ «عصمت» معي في الصباح، بعد أن عرفت إلى أين يجب لي أن أتوجه، تحركنا معًا وسط الناس بالزي العسكري، كنت راكبًا معه في سيارته، هو يملك سيارة وأنا لا، على الرغم من أنني أعلى منه منصبًا، فإن الحشيش ذاته أغلى عندي من تكلفة شراء سيارة، أنا أستنفذ نفسي دائمًا حتى في المال.

لكن في هذا الوقت، لم أقدر سوى على التفكير في كل الاحتمالات الخاصة بـ«سبأ»، تآكلتُ ووصلتُ إلى سدرة التفكير، دماغي كاد ينفجر، أنا بارع في صناعة السيناريوهات لكل الاحتمالات، ومع ذلك يأتي دائمًا احتمالٌ لم يكن في بالي، ويحدث.

آخٍ يا «سبأ»! كل الأمور عادت من دونك، عادت ليست بخير. إن كنت تسمعينني الآن، أتمنى أن تعودي لتكوني موجودةً على الأقل، أنا أضعف من أن أكون من دونك، أنا على يقين أنكِ في مكانٍ ما، أنك تسمعينني الآن كعادتك، أرجوكِ كوني هنا ولا ترحلي، رحيلك هو موتي!

وصلنا، كان المكان خاويًا كما توقعت، خاويًا عن غيره، كان في الداخل، ينظف ويرعى المعبد كالعادة، إنه العم «إسحاق»، من علمني أن أكون مِن ذوي الخنصر، تلك الجماعة السوداء، التي تعلمت الانتماء إليهم منذ وصية أمي لي وأنا صغير، تعلمت

وترعرعت بينهم، دون أن أرى أحدًا منهم غير العم «إسحاق»، هم يساعدونني لأكون العزيز الجديد، وزيرًا لجيش صِرْم، يقولون إنني مُخلِّص وأن الرب اختارني منذ أن خُلِق القلم، وهم يرعونني، تنفيذًا لقضاءٍ قد قضاه الرب منذ الأزل.

أمسكت به في أول غرف المعبد، وخنقتُ رقبته بإحدى ذراعي، وبالأخرى تحدثت معه بلغة الإشارة، قلت له أخبرني بكل شيءٍ وإلا قتلتك، مثلما قتلت أبي.

فضحك فجأةً بصوتٍ عالٍ وقال:

- أنتَ لم تقتل أباك يا طفلي، أنتَ فقط ذبحته.

فضربتُه، وقلت له بعنف:

- ماذا تريد أن تقول يا عجوز؟!

- والدتكَ العظيمة...

- ما دخل والدتي؟! أتريد أن تُعجِّل موتَك؟!

- والدتكَ العظيمة هي مَن قتلت أباك.

وظل يضحك ويضحك، فضربته وألقيته أرضًا، ثم وجهت مسدسي إلى رأسه وقلت:

- لا تحاول أن تكذب!

فرد:

- ولمَ أكذب في حقيقةٍ أنتَ تعرفها، أمك أعطت لوالدك سمًّا يجعل المرء يُشَل ثم يحتضر ببطء، وتركته على السرير، والبقية فعلتها راشيل حينما نامت جانبه، كان أباك يحتضر وهو مشلولٌ لا يقوى على الحركة، ويرى ابنه الوحيد الصغير يقترب على الأرض بسكينٍ وينحره، ابنه الذي كان يعمل ليل نهار من أجله، ولا يرى البيت من كثرة انشغاله في العمل، ابنه الذي كان يشتري له كل أسبوعٍ لعبةً جديدة، تأخذها منه مليكة وتعطيها لك وتخبرك أن لا غيرها يتذكرك، كنت ابنه الذي علَّمتْهُ وجرَّأتهُ مليكة أن يذبح القطَّ الأسودَ الذي يخيفه، كنت ابنه الغبي الذي ظن أن وجود سكين كبيرةٍ حادةٍ في أول المطبخ صدفة.

صرت أبكي على أبي وأنا أسمع، لم أكن بتلك القوة الكافية لأتحمل، صرخت في وجهه، ووجهت المسدس ناحيته، فقال لي «عصمت»:

- لا يا عبد العزيز، لا تقتله، نحن لم نعرف مصير سبأ.

فأطلقت الرصاص على قدمه وأصبته.

حاولت أن أتمالك نفسي حتى لا أفقد «سبأ»، تماسكت بكل ما فيّ، وضعتُ يدي على وجهي، أزلت دموعي، ثم قبل أن أقول كلمة واحدة قال هو:

- سأخبرك عن سبأ الجميلة، وماذا فعل فيها هُدهُدنا، لكن عدني أن تكون رجلًا أولًا، وألَّا تبكي كما الأطفال، وألَّا تخونها مع فيروز، هيا أخبرني أنك ستكون رجلًا بالشكل الكافي لأخبرك.

❀❀❀

**٢٨ أكتوبر..**

في ليلة هابها القمر، امتلأت السماء بظلام قلوب البشر، كانت الحسناء «سبأ» قد أنهت عملها ونزلت من معمل التحاليل، وسط برد الشتاء الذي أثلج معطفها، وبالها الذي اشتاقَ وانشغل بـ«عبد العزيز»، الذي ستقابله أخيرًا بعد انتهاء الأسبوع في جمعة جديدة، جمعة تعرفُ كليهما جيدًا، تجمع بين شتاتهما المتفرق، جمعة تصبرها مرة أخرى بزواجهما الذي تأخر أعوامًا. خطواتها الصغيرة كانت تعطي للأرض بريقًا ساحرًا، تفكر في شراء طعام، فتجد نفسها انتُشِلَت في سيارة سوداء، مع أناسٍ ذوي أَرْدِيةٍ سوداء، ظلَّت تحاول الصراخ دون جدوى، كأنما السيارة ذهبت إلى الصحراء، أو إلى عالمٍ آخر لا يوجد فيه بشر.

أُدخِلَت إلى معبد «موسى بن ميمون»، تركوها مقيدةً حتى أتى منتصف الليل، ومر عليه ساعة، فبدأوا -وهم مجموعة من عشرة أشخاص- يطوفون حولها ويُؤدُّون طقوسًا غريبة. كانت «سبأ»

مقيدةً خائفةً من مناظرهم ومن صوت الطبول التي بدأت تُقرَع، كان لديها أمل أن «عبد العزيز» سيظهر وينقذها في أي لحظة، كانت متمسكةً بهذا الأمل إلى درجة أنها تخيَّلتهُ أكثر من مرة، كلما زاد صوت الطبول، زادت دقات قلبها وهلعها، بخاصةٍ أنهم بدأوا يُتمتِمون بتمتمةٍ غير مفهومة، كلماتٍ مُبهمةٍ بدت أنها من لغةٍ قديمةٍ انقرضت من طول الزمان. الهلع والأمل، بدأت تنوي قراءة سورة الكرسي في صوتٍ خافت، وحينما بدأت تقول:

- بسْم الـ...

كانت قد نُحرِت، وفاض دمها الطاهر في كل مكان، عيناها كانتا مُتجهتان صوب السماء، كانت تريد معجزةً فقط، كانت على يقينٍ إلى اللحظة الأخيرة.

ماتت «سبأ»، وذنبها الوحيد أنها جعلت من «عبد العزيز» شخصًا طاهرًا، في مكانٍ يرفض كل أشكال الطُّهْر، ماتت ولم تفقد أملها إلا مع فقدان الروح، كانت تشبه الغزلان المذبوحة، حلاوة روحها كان بإمكانها إضاءة العالم، لكنها اختفت.. إلى الأبد!

لم يكتفوا بهذا، بل جعلوا ابنة أحد الجان الكافر يتلبَّس جسدها فور خروج روحها، وكان لا بد أن تتستر رقبتها في مكان النحر بالحجاب، فعلوا هذا ليهدموا صورتها أمام عين «عبد العزيز»، ليرتد إلى أصله.

الحياة بارعةٌ في سلْبِكَ كلَّ الأشياء التي تحتاج إليها!

❀❀❀

- ماتت سبأ، ذُبِحت.

كان أهون عليّ أن أكون مكانها، أيحدث لها كل هذا، وبسببي أنا؟!

أنا لم أفعل خيرًا أبدًا في حياتي، سوى أنني كنت معها، كيف؟!

ليتني لم أولد!

عاد صوت العجوز الحقير إلى الظهور، وهو على الأرض:

- حينما يتلبس الجن جسدًا ميتًا، يأخذ مدةً من الوقت، ثم بعدها يخرج الجسد المادي عن سيطرته، ويبدأ في التحلل، كما هو واضحٌ خلفك الآن.

التفتُ خلفي فوجدتها «سبأ» واقفة، وقد تحللت معظم أجزاء جسدها. تذكرت للحظة أنها ليست هي، ولكن في اللحظة نفسها انقضت عليّ، حاولَتْ إيذائي، لكن أنار قميصي من تحت ملابسي بكلماته ذاتها التي تظهر على لونه الأبيض، فوجدتُ جثمان «سبأ» يقع أرضًا وحده، علمت أن كل شيء انتهى.. انتهى إلى الأبد!

تحللت معظم أجزاء وجهها، صار بعضه هلاليًّا والبقية رميمًا، وتخرج من الجثة ديدانٌ مكتظةٌ في مشهدٍ خرَّتْ له كل جبالِ صمودي العتية.

❀❀❀

**رسالةٌ لن يقرأها صاحبها..**

إنه شعورٌ لا حدَّ له!

كيف أفقدكِ، أفقدُ روحي، وهذا المقيت جسدي لا يزال حيًّا؟! لماذا لم ينتهِ الوقتُ بعد؟! لماذا لا تُكتَب نهايةٌ لعُمري الآن يا سبأ؟! لماذا أنتِ؟! لماذا أنا؟! قولي بربكِ يا سبأ! أين روحكِ الطاهرة؟! كيف تجرأ التراب على مواراتكِ يا عزيزتي؟! حاولتُ الانتحار تسع عشرة مرةٍ من بعدك، وما زلتُ حيًّا، كلما انتحرتُ، لُذْت بالفرارِ من تلك الدنيا المأساوية. أجدني أستيقظُ من نومي وجسدي سليم، يخبرني الأطباء أنني في أحسنِ حال، ولا أعرف كيف، قدماي تتعثران في كلِّ الطرق من بعدك، بصري ذهب ولم يرتد، لا أرى أحدًا.

أخبريني أنها أكذوبة..

وأن رحيلكِ كابوسٌ ستفيقُ منه عيناي على وجهك، أخبريني أنكِ هنا حتى أسكن إليكِ، أسمعيني صوتك حتى أطمئن، أخبريني أنني قويٌّ حتى أدرك وجودك.

أنا أُحبكِ ولا أعلم كيف أخبركِ بهذا الآن.

أنا ميتٌ في منتصف الطريق، ضلَّ وجهكِ في عتمةِ غيابك.

❀❀❀

**الأول من يناير..**

كل شيءٍ لم يمر، أنا عالق، لم أجد لنفسي راحة، مُدمَّر بعد دفن «سبأ»، وعلى الرغم من أنني قتلت العم «إسحاق»، لم أسترح بعد، بل صارت لدي رغبةٌ في رؤية الدماء أكثر، والانتقام.

ماتت «سبأ».. مات قلبي!

كنت ذاهبًا لأحاول أن أخلد إلى النوم، أطفأت كل أنوار الشقة كي أقدر أكثر على المحاولة، فربما.. ربما أنام!

شخصٌ مثلي فقَدَ كل ما يحتاج إليه في العالم، ليس عنده أي مشكلة في قتل كلِّ مَن في العالم أيضًا.

وأنا جالس وسط العتمة، شعرت فجأةً بهزةٍ كبيرةٍ تحدث للبيت، كأنه سينهار، ثم سمعت صوتًا خلفي فنظرت باتجاهه في الظلام، فلم أجد أحدًا، وحينما اعتدلت وجدت وجهًا ضخمًا يشبه وجه الخنزير لكن بقرنين ممتدَّيْن يزفر في وجهي، فبدأ قميصي (قميصُ يوسف) ينير بكلماته، فأصدر صوتَ خنخنةٍ وتراجع، لأكتشف أنه كيانٌ ضخمٌ مرعبٌ لا تقوى عيناي على إبصاره كثيرًا، فيه من القبح والضخامة ما لم ترهُ عين بشريٍّ سواي. وقفتُ لأعتدل، فسجد لي وقال:

- أنا لم أسجد لأبيك وأصلِك، والآن أسجد لك!

تمت

## وددتُ أن أشكر بعض الطيبين هنا . .

أهلي . . أبي عطاء الأرض، أمي رحمة السماء، أختي وأخي والعائلة بأكملها أعمامًا وأخوالاً .

صُحبة عمري ونوري في بأسي وقوتي في محنتي: يوسف هاني، محمد عاطف، ويوسف صلاح، يكفي أن تعلموا أن هذا ليس مديحًا أدبيًّا، وأنني قد أبكي أحدكم لمجردِ رحيله.

هند محمود، إن كانت لي أختٌ كبيرة فبالتأكيد سأتمنى أن تكون أنتِ.